الينابيع

الدِّهان السِّحري

وَقصص أخرى

محمد سليمان



مَكتبة لبنان ناشِرون

إشراف: الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ أ شارع حسين واصف، ميدان المساحة، الدقي، الجيزة - مصر
مكتبة لبنان ناشرون
ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٩٩٨/٨٨٥٦

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٣١٠ - ٨

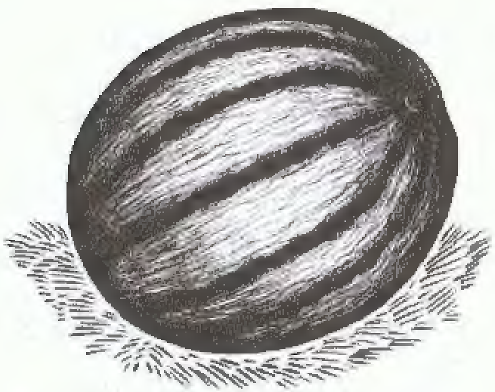
رسوم: ممدوح الفرماوي

طبع في دار نوبار للطباعة، القاهرة

الينابيع

الدهان السحري
وقصص أخرى

محمد سليمان



مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

لِوَجْهِ الله

يُحْكى أَنَّهُ في قَديمِ الزَّمانِ كانَ يَجْلِسُ على عَرْشِ الشّامِ مَلِكٌ عَظيمُ الشَّأْنِ ، يُحِبُّ أَعْمالَ البِرِّ والإِحْسانِ ، مِمّا جَعَلَهُ مَحْبوبًا مِنْ شَعْبِهِ ، قَريبًا مِنْ قَلْبِهِ .

وكانَ هَذا الْمَلِكُ مَشْهورًا بِعِشْقِهِ لِلْبِناءِ والعِمارَةِ ، ولِذا كانَ يَجْمَعُ الْمُهَنْدِسينَ وعُمّالَ البِناءِ كُلَّما امْتَلأَتْ خَزينَةُ الدَّوْلَةِ بِالأَمْوالِ ، ويَأْمُرُهُمْ بِبِناءِ أَيِّ شَيْءٍ . . قَصْرٍ . . جِسْرٍ . . مَدْرَسَةٍ . . مَلْجَأٍ لِلأَيْتامِ أَوْ مُسْتَشْفًى ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهاءِ البِناءِ ، يَأْمُرُهُمْ بِوَضْعِ لَوْحَةٍ رُخامِيَّةٍ فَخْمَةٍ في صَدْرِ البِناءِ ، يُنْقَشُ عَلَيْها اسْمُهُ وتاريخُ إِنْشاءِ الْمَبْنى ، مُمَوَّهًا بِالذَّهَبِ ، تَخْليدًا وتَمْجيدًا لاسْمِهِ وعَهْدِهِ ، وحَتّى يَذْكُرَهُ النّاسُ عَلى مَرِّ التّاريخِ . ولَمْ تَمْضِ سَنَواتٌ مَعْدودَةٌ حَتّى كانَ لَهُ في كُلِّ بَلْدَةٍ مِنَ البُلْدانِ مَبْنًى ضَخْمٌ ، تَتَصَدَّرُ واجِهَتَهُ لَوْحَةٌ مِنَ الرُّخامِ النَّفيسِ ، وعَلَيْها اسْمُهُ

بِحُروفٍ كَبيرَةٍ مُذَهَّبَةٍ .

وذاتَ يَوْمٍ دَعا الْمَلِكُ - كَعادَتِهِ - وَزيرَ شُئُونِ البِلادِ ، وأَخَذَ يَسْأَلُهُ عَنْ أَحْوالِ الرَّعِيَّةِ ، وما تَمَّ إِنْشاؤُهُ مِنْ مَبانٍ وقُصورٍ ، وهَلِ النّاسُ راضونَ بِعَهْدِهِ ، سُعَداءُ بِحُكْمِهِ ، أَمْ أَنَّ لَهُمْ مَطالِبَ أَوْ شَكاوى لَمْ يُحَقِّقْها ؟ فَأَخْبَرَهُ الوَزيرُ بِأَنَّ النّاسَ جَميعًا يَعيشونَ في رَغَدٍ وسَعادَةٍ ، ويَذْكُرونَ اسْمَهُ دائمًا مَقْرونًا بِحُبِّ الْخَيْرِ وأَعْمالِ البِرِّ والإِحْسانِ .

وشَرَدَ الوَزيرُ لَحْظَةً قالَ بَعْدَها : « لَقَدْ فَعَلْتَ ، يا مَوْلايَ ، كُلَّ ما في وُسْعِكَ لإِرْضاءِ النّاسِ ، لَكِنَّكَ نَسيتَ أَمْرًا هامًّا ! »

نَظَرَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ بِاسْتِغْرابٍ ، ثُمَّ سَأَلَ : « كَيْفَ والبِلادُ عامِرَةٌ بِالْخَيْرِ ، والنّاسُ سُعَداءُ كَما تَقولُ ؟ »

قالَ الوَزيرُ : « لَقَدْ نَسيتَ ، يا مَوْلايَ ، أَنْ تَأْمُرَ بِبِناءِ مَسْجِدٍ كَبيرٍ فَخْمٍ يَليقُ بِمَقامِكَ ، ويَذْكُرُ فيهِ النّاسُ اسْمَكَ بِالشُّكْرِ والعِرْفانِ ، ويُخَلِّدُ عَهْدَكَ عَلى مَرِّ

الزَّمانِ . »

تَراجعَ الْمَلكُ قائِلاً وقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ أَماراتُ الدَّهْشَةِ :

« حَقًّا ، يا وَزيري ! كَيْفَ حَدَثَ هَذا ؟ إِنَّهُ أَمْرٌ غايَةٌ في الأَهَمِّيَّةِ ، فالْمَسْجِدُ سَوْفَ يَبْقى خالِدًا عَلى مَرِّ العُصورِ ، يُذَكِّرُ النّاسَ بِاسْمي وعَهْدي . »

وسَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ اسْتَطْرَدَ بِلَهْجَةٍ مُتَحَمِّسَةٍ :

« هَيّا ادْعُ لي وَزيرَ البِناءِ والتَّشْييدِ لِيُخْرِجَ هَذا الْمَسْجِدَ إِلى النّورِ في أَقْرَبِ وَقْتٍ . »

حَضَرَ وَزيرُ البِناءِ ، فَأَمَرَهُ الْمَلِكُ بِأَنْ يُشَيِّدَ مَسْجِدًا فَخْمًا عَلى مِساحَةٍ كَبيرَةٍ ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُ مِئْذَنَةً مُرْتَفِعَةً جِدًّا ، حَتّى يَراها النّاسُ في كُلِّ مَكانٍ وَيَذْكُروهُ . ثُمَّ أَصْدَرَ أَمْرًا مَلَكِيًّا بِأَلا يُساهِمَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ في هَذا البِناءِ ، مَهْما عَلا شَأْنُهُ ، أَوْ كَثُرَ مالُهُ ، حَتّى لا يُشارِكَهُ في فَضْلِ بِنائِهِ .

حَشَدَ وَزيرُ البِناءِ والتَّشْييدِ كُلَّ مُعاوِنيهِ ومُسْتَشاريهِ ، حَتّى يَخْرُجَ الْمَسْجِدُ تُحْفَةً مِعْمارِيَّةً لَمْ يَسْبِقْ لَها مَثيلٌ ،

وتَشْهَدَ بِرَوْعَتِها كُلُّ الأَجْيالِ . ولَمْ تَمْضِ شُهورٌ حَتّى تَمَّ بِناءُ الْمَسْجِدِ ، وارْتَفَعَتْ مِئْذَنَتُهُ تَشُقُّ عَنانَ السَّماءِ ، تَزْهو بِرَوْعَةِ عِمارَتِها وما تَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ زَخارِفَ وزُجاجٍ مُلَوَّنٍ ، وَأَقْبِيَةٍ تَحوطُها ، حَتّى لاحَتْ كالعَروسِ بَيْنَ الْمَدْعُوِّينَ .

وكانَ افْتِتاحُ الْمَسْجِدِ في يَوْمِ جُمُعَةٍ ، كَيْ تَكونَ الصَّلاةُ جامِعَةً ، فَخَرَجَ الْمَلِكُ مِنْ قَصْرِهِ في مَوْكِبٍ فَخْمٍ ، يَتَقَدَّمُهُ الفُرْسانُ في ثِيابٍ مُذَهَّبَةٍ ، تُرَفْرِفُ الأَعْلامُ في أَيْديهِمْ ، وتَسيرُ خَلْفَ الْمَوْكِبِ فِرَقُ الْحَرَسِ الْمَلَكِيِّ فَوْقَ خُيولِها الْمُطَهَّمَةِ ، مُشْرِعينَ في أَيْديهِمْ سُيوفًا تَعْكِسُ وَهَجَ الشَّمْسِ ، وجُموعُ الشَّعْبِ على الجانِبَيْنِ تَهْتِفُ بِاسْمِ الْمَلِكِ الصّالِحِ .

بَلَغَ الْمَوْكِبُ الْمَسْجِدَ فَتَرَجَّلَ الْمَلِكُ عَنْ حِصانِهِ ، ثُمَّ مَضى إِلى مَكانِهِ في الْمِحْرابِ فَجَلَسَ ، والْتَفَّ مِنْ حَوْلِهِ الأُمَراءُ والوُزَراءُ وأَعْيانُ البِلادِ . فَلَمّا قَضَوْا صَلاتَهُمْ عادَ الْمَلِكُ في مَوْكِبِهِ إِلى قَصْرِهِ ، وهُوَ سَعيدٌ غايَةَ السَّعادَةِ

مِمّا شاهَدَهُ في يَوْمِهِ ، مِنْ آياتِ العَظَمَةِ والْمَحَبَّةِ والإجْلالِ .

وجاءَ اللَّيْلُ ، فَمَضى الْمَلِكُ إلى فِراشِهِ سَعيدًا ، واسْتَسْلَمَ لأَحْلامِهِ . وفي الْمَنامِ رَأى حُلْمًا عَجيبًا - رَأى أَنَّهُ واقِفٌ عَلى بابِ الْمَسْجِدِ ، يَقْرَأُ في إعْجابٍ وَزَهْوٍ اسْمَهُ الْمَكْتوبَ بِالذَّهَبِ عَلى اللَّوْحَةِ الرُّخامِيَّةِ الفَخْمَةِ ، وإذْ ذاكَ هَبَطَ عَلَيْهِ مِنَ السَّماءِ مَلَكٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ ، تَقَدَّمَ نَحْوَ اللَّوْحَةِ ، فَمَحا اسْمَهُ ، وكَتَبَ مَكانَهُ اسْمَ امْرَأَةٍ مَجْهولَةٍ ، لَمْ يَسْمَعْ بِها الْمَلِكُ مِنْ قَبْلُ !

هَبَّ الْمَلِكُ مِنْ نَوْمِهِ مَفْزوعًا ، وراحَ يُسائِلُ نَفْسَهُ عَنْ تَفْسيرِ ذَلِكَ الْحُلْمِ الغَريبِ ، وعَمَّنْ تَكونُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الغَريبَةُ . فَلَمّا لَمْ يَهْتَدِ إلى تَفْسيرٍ - اسْتَأْنَفَ رُقادَهُ مِنْ جَديدٍ ، فَإذا نَفْسُ الرُّؤْيا تُعاوِدُهُ ، تَمامًا كَما حَدَثَ في الْمَرَّةِ الأولى ، فاسْتَيْقَظَ وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الضّيقُ مَبْلَغًا كَبيرًا . وعَبَثًا حاوَلَ أَنْ يَجِدَ لِحُلْمِهِ تَأْويلاً أَوْ يَتَذَكَّرَ اسْمَ الْمَرْأَةِ مِنْ بَيْنِ رَعاياهُ . . هَلْ جاءَتْهُ شاكِيَةً أَمْرًا ذاتَ مَرَّةٍ فَلَمْ

يُحَقِّقْ شَكْواها أَوْ يُنْصِفْها ؟ هَلْ لَمَحَ وَجْهَها في أَثْناءِ سَيْرِهِ في مَوْكِبِهِ عِنْدَ افْتِتاحِ الْمَسْجِدِ ؟ هَلْ . . هَلْ . . لَكِنَّ مُحاوَلاتِهِ جَميعًا ذَهَبَتْ هَباءً ؛ مِمّا أَهَمَّهُ وَكَدَّرَ صَفْوَهُ . وراحَ يُسائِلُ نَفْسَهُ : تُرى أَيْنَ تَعيشُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ ؟ وما حِكايَتُها ؟ ولِماذا مَحا الـمَلَكُ اسْمي وكَتَبَ اسْمَها ؟

وَلَمّا أَشْرَقَ الصَّباحُ نَهَضَ الْمَلِكُ مُغْتَمًّا مُتَشائِمًا مِمّا رَآهُ في الْحُلْمِ ، وعَلى الفَوْرِ دَعا إلَيْهِ وَزيرَهُ ، وحَكى لَهُ ما رَآهُ في الْحُلْمِ ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَشُقَّ الأَرْضَ وَيَبْحَثَ لَهُ عَنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الغَريبَةِ ، الَّتي أَقَضَّتْ مَضْجَعَهُ وأَرَّقَتْ مَنامَهُ ، حَتّى يَجِدَها ويَدْعُوَها لِلْمُثولِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وكانَ حَظُّ الوَزيرِ حَسَنًا ، فَلَمْ يَجِدْ مَشَقَّةً كَبيرَةً في العُثورِ عَلى تِلْكَ الْمَرْأَةِ ، فَما إنْ سَأَلَ عَنْها حُرّاسَ القَصْرِ حَتّى دَلّوهُ عَلى كوخِها الصَّغيرِ ، القائِمِ بِالقُرْبِ مِنْ مُعَسْكَرِهِمْ . وهِيَ امْرَأَةٌ فَقيرَةٌ ، لا تَمْلِكُ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا غَيْرَ قوتِ يَوْمِها ، وغَيْرَ ثَوْبٍ يَسْتُرُ جَسَدَها ، وبُسْتانٍ

صغيرٍ تعيشُ مِنْ ثمَراتِهِ . فَلَمّا مَثَلَتِ الْمَرْأَةُ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ ، وهِيَ تَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، سَأَلَها قائِلاً :

« أَخْبِريني بِصِدْقٍ ، يا امْرَأَةُ ، هَلْ عاوَنْتِ في بِناءِ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ بِشَيْءٍ ، مُخالِفَةً بِذَلِكَ أَمْرِيَ الْمَلَكِيَّ ؟»



وبِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ أَقْسَمَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّها لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ ، وأَنَّ كُلَّ ما في الأَمْرِ أَنَّها كانَتْ تَسيرُ ذاتَ يَوْمٍ بِالقُرْبِ مِنَ الْمَسْجِدِ أَثْناءَ تَشْييدِهِ ، فَرَأَتْ حِمارًا يَحْمِلُ حِجارَةً ثَقيلَةً ، ويَلْهَثُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ ، ويَتَدَلّى لِسانُهُ مِنْ شِدَّةِ العَطَشِ ؛ فَما كانَ مِنْها إلا أَنْ أَحْضَرَتْ لَهُ بَعْضَ الماءِ في دَلْوٍ صَغيرَةٍ ، فَرَوى عَطَشَهُ ، واسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ ، ومَضَتْ هِيَ في طَريقِها . وهُوَ عَمَلٌ بَسيطٌ لا تَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ أَجْرًا ، أَوْ تَنْتَظِرُ عَلَيْهِ مُكافَأَةً ، وإِنَّما فَعَلَتْهُ لِوَجْهِ اللهِ . ثُمَّ أَضافَتْ قائِلَةً : « ولا تَحْسَبَنَّ ، يا مَوْلايَ ، أَنَّني بِذَلِكَ قَدْ خالَفْتُ أَمْرَكَ . »

أَطْرَقَ الْمَلِكُ ساهِمًا بَعْدَ أَنْ سَمِعَ كَلامَ الْمَرْأَةِ الفَقيرَةِ ، ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ قائِلاً لِوَزيرِهِ :



« هَلْ فَهِمْتَ ، يا وَزيري ، مَغْزى الْحُلْمِ ؟ لَقَدْ بَذَلَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ مَعونَتَها خالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ ، أَمّا أَنا فَقَدْ فَعَلْتُ ما فَعَلْتُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُشيدَ النّاسُ بِاسْمي ؛ فَكانَتْ بِذَلِكَ أَقْرَبَ إِلى اللهِ مِنّي وأَجْدَرَ بِمَحَبَّتِهِ . »

وما إِنِ انْصَرَفَتِ الْمَرْأَةُ حَتّى أَمَرَ الْمَلِكُ بِأَنْ يُمْحى اسْمُهُ الْمُمَوَّهُ بِالذَّهَبِ ، ويُكْتَبَ اسْمُ الْمَرْأَةِ بَدَلاً مِنْهُ .

مَبْعوثُ الآخِرَةِ !

يُحْكى أَنَّ رَجُلاً مُحْتالاً ، خَرَجَ مِنْ دارِهِ ذاتَ يَوْمٍ وَقَدْ ضاقَ بِهِ الحالُ ، وفي طَريقِهِ مَرَّ بِامْرَأَةٍ كانَتْ تَجْلِسُ عَلى عَتَبَةِ بَيْتِها ، وقَدْ بَدا عَلَيْها الْحُزْنُ والشُّرودُ .

حَيّاها بِاقْتِضابٍ ، وابْتَدَرَتْهُ الْمَرْأَةُ فَجْأَةً : « عَفْوًا ، يا سَيِّدي ، مِنْ أَيْنَ أَنْتَ قادِمٌ ؟ »

رَمَقَها بِاسْتِغْرابٍ ، ثُمَّ هَتَفَ بِلَهْجَةٍ ضائِقَةٍ : « مِنَ الآخِرَةِ ! »

وإِذا وَجْهُ الْمَرْأَةِ يَتَهَلَّلُ فَرَحًا ، وتَقولُ في لَهْفَةٍ غَريبَةٍ : « إِذًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ جَدّي الَّذي ماتَ مُنْذُ شُهورٍ . »

وأَدْرَكَ الْمُحْتالُ أَنَّ الْمَرْأَةَ بَلْهاءُ ، وأَنَّها صَيْدٌ ثَمينٌ ، فابْتَسَمَ قائِلاً : « طَبْعًا ، طَبْعًا ! إِنَّهُ بِخَيْرٍ ، لَكِنَّهُ لِلأَسَفِ يُعاني شِدَّةَ الجوعِ ، ويَحْتاجُ بَعْضَ المالِ . »

وإذا الْمَرْأَةُ تَنْهَضُ قائِلَةً في جَزَعٍ : « يا جَدِّي الْحَبيبَ !»

ثُمَّ هَرْوَلَتْ داخِلَةً ، وجاءَتْ بكيسٍ مَمْلوءٍ بالنُّقودِ ، وقالَتْ : « بِاللهِ عَلَيْكَ ، هَلا أَسْدَيْتَ لي مَعْروفًا ، يا سَيِّدي ؟ أَعْطِهِ هَذا الكيسَ !»



كَتَمَ الْمُحْتالُ ضَحْكَةً أَوْشَكَتْ أَنْ تُفْلِتَ مِنْهُ ، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ أَنَّها امْرَأَةٌ بَلْهاءُ ، ثُمَّ أَخَذَ مِنها الكيسَ قائلاً : « سأفعل ، يا سَيِّدَتي ، وسَوْفَ أُبْلِغُهُ تَحِيّاتِكِ !»



ولَمْ تَمْضِ دَقائِقُ حَتّى أَقْبَلَ زَوْجُ الْمَرْأَةِ مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ حِصانِهِ ، فَأَخْبَرَتْهُ امْرَأَتُهُ بِما حَدَثَ ؛ فاسْتَشاطَ غَضَبًا بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ خُدْعَةَ الرَّجُلِ ، وأَسْرَعَ وَراءَهُ بِحِصانِهِ . نَظَرَ الْمُحْتالُ وَراءَهُ فَرَآهُ قادِمًا في اتِّجاهِهِ ؛ فانْطَلَقَ يَعْدو مُحاوِلاً الْهَرَبَ ، حَتّى بَلَغَ مَطْحَنًا قَريبًا ، فَقالَ لِصاحِبِهِ في لَهْجَةٍ مُثيرَةٍ : « ماذا تَنْتَظِرُ ، يا رَجُلُ ؟ هَلْ تَرى ذَلِكَ الفارِسَ القادِمَ مِنْ بَعيدٍ ؟ إنَّهُ آتٍ لِيَقْتُلَكَ !»

اِسْتَبَدَّ الْخَوْفُ بِالطَّحّانِ ، فَتَرَكَ مَطْحَنَهُ ، وانْطَلَقَ يَعْدو

صَوْبَ التَّلِّ القَريبِ ، أَمّا المُحْتالُ فَقَدْ عفَّرَ نَفْسَهُ بالدَّقيقِ ، وانْحَنى كَأَنَّهُ يَعْمَلُ ، فَلَمّا أَقْبَلَ الفارِسُ ورَآهُ عَلى هَذِهِ الصّورَةِ سَأَلَهُ في حَيْرَةٍ : « أَ لَمْ تَرَ رَجُلاً يَمُرُّ بِكَ مُنْذُ دَقائِقَ ؟ »

وبِلا تَرَدُّدٍ أَشارَ لَهُ صَوْبَ التَّلِّ قائِلاً : « بَلى ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَصْعَدُ التَّلَّ القَريبَ . »

تَرَجَّلَ الفارِسُ عَنْ حِصانِهِ قائِلاً : « إذًا ، أَرْجوكَ أَنْ تُمْسِكَ بِحِصاني رَيْثَما أَقْبِضُ عَلَيْهِ . »

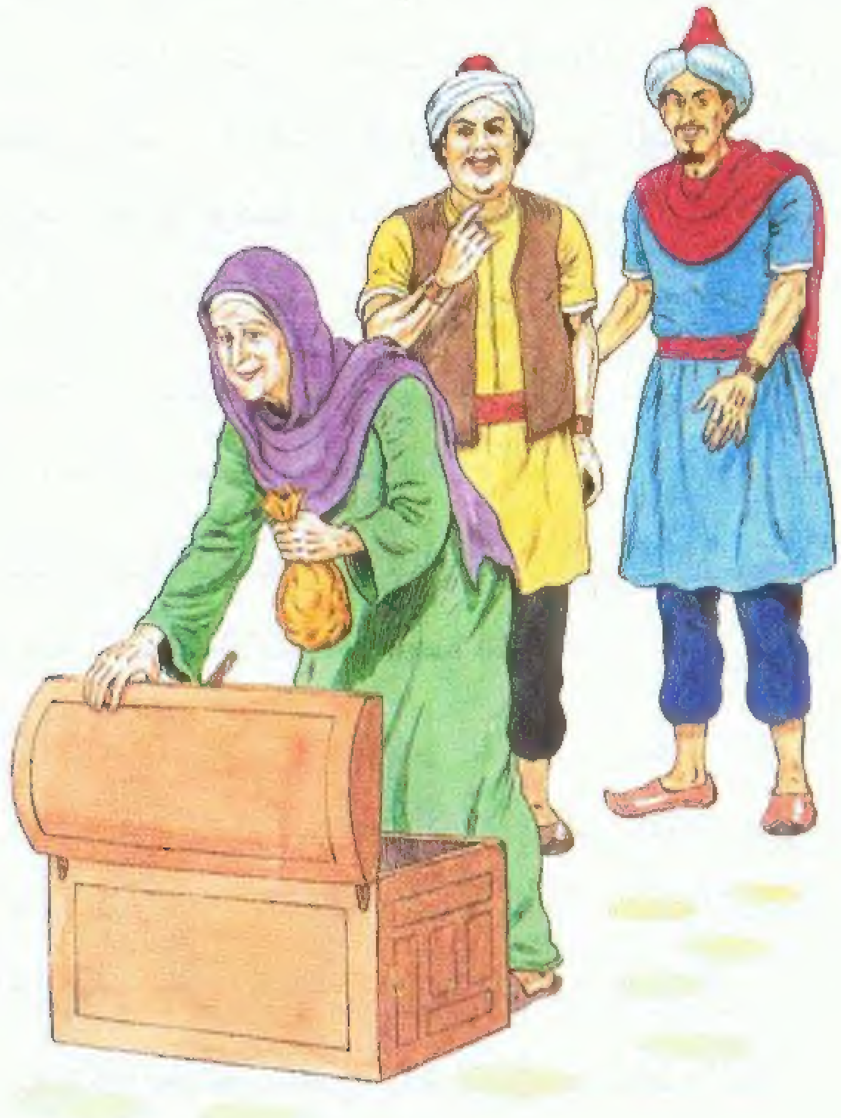
وما كادَ الطَّحّانُ يُبْصِرُ الفارِسَ قادِمًا حَتّى جَثا عَلى رُكْبَتَيْهِ قائِلاً في ضَراعَةٍ : « ارْحَمْني ، يا سَيِّدي ! أنا لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ العِقابَ . أَنا . . »

وَأَحَسَّ الفارِسُ في لَهْجَتِهِ بالصِّدْقِ ؛ فَسَأَلَهُ عَمّا جاءَ بِهِ إلى التَّلِّ ، فَحَكى لَهُ الطَّحّانُ ما حَدَثَ . وفي الحالِ أَدْرَكَ الفارِسُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ في فَخِّ المُحْتالِ ؛ فانْطَلَقَ عائِدًا إلى المَطْحَنِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَثَرًا لِلْمُحْتالِ ولا الحِصانِ !

وعادَ مَخْذولاً إلى دارِهِ . فَلَمّا رَأَتْهُ امْرَأَتُهُ بِهَذِهِ الصّورَةِ – سَأَلَتْهُ باسْتِغْرابٍ : « أَيْنَ جَوادُكَ ، يا رَجُلُ ؟ »

ولَمْ يَجِدْ ما يَرُدُّ بِهِ سِوى أَنْ يَقولَ بِلَهْجَةٍ ساخِرَةٍ :

« أَرْسَلْتُهُ مَعَ كيسِ نُقودِكِ إلى جَدِّكِ ، حَتّى لا يُرْهِقَهُ المَشْيُ في الآخِرَةِ ! »



الكَيْلُ بِنفْسِ الْمِكْيال !

كانَ عامِرٌ وعِرْفانُ مِنَ الشُّطّار - والشُّطّارُ جماعَةٌ تَتَّصِفُ بِالْخُبْثِ والْمَهارَةِ في الاحْتِيالِ - وذاتَ يَوْمٍ ذَهَبا إلى امْرَأَةٍ عَجوزٍ ، مَعْروفٍ عَنْها الصَّلاحُ والأَمانَةُ ، وقالا لَها إنَّهُما عَلى سَفَرٍ بَعيدٍ سَوْفَ يَسْتَغْرِقُ وَقْتًا طَويلاً ، وإنَّهُما يُريدانِ أَنْ يَحْتَفِظا عِنْدَها بِبَعْضِ الأَمْوالِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَضيعَ مِنْهُما أَثْناءَ السَّفَرِ . فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ الْمالَ مِنَ الرَّجُلَيْنِ ، و وَضَعَتْهُ في كيسٍ ورَبَطَتْهُ ، وحَفِظَتْهُ في خِزانَتِها . وقالَ الرَّجُلانِ : « نَرْجوكِ ، يا أُمَّنا ، أَلا تُسَلِّميهِ لأَحَدٍ مِنّا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكونَ صاحِبُهُ مَوْجودًا مَعَهُ ؛ لأَنَّنا شَريكانِ فيهِ . »

فَقالَتِ الْمَرْأَةُ : « سَمْعًا وطاعَةً . تُسافِرانِ وتَعودانِ بِالسَّلامَةِ . »

ومَضى الرَّجُلانِ لِشَأْنِهِما وغابا أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ .

وسَمِعَتِ الْمَرْأَةُ ذاتَ يَوْمٍ طَرْقًا عَلى بابِها ، فَقامَتْ وَفَتَحَتْ ، فَإِذا عامِرٌ يَبْتَسِمُ لَها قائِلاً : « كَيْفَ حالُكِ ، يا أُمِّي ؟ لَعَلَّكِ بِخَيْرٍ ! هاتِ مِنْ فَضْلِكِ الأَمانَةَ الَّتي تَحْتَفِظينَ بِها . » لَكِنَّ الْمَرْأَةَ تَذَكَّرَتِ الشَّرْطَ الَّذي اشْتَرَطاهُ عَلَيْها وهُما يودِعانِ لَدَيْها النُّقودَ ، فَقالَتْ : « وأَيْنَ صاحِبُكَ ؟ »

تَظاهَرَ بِالْحُزْنِ قائِلاً : « يَرْحَمُهُ اللهُ ! لَقَدْ ماتَ ، يا أُمِّي ، ودَفَنْتُهُ بِنَفْسي . هاتِ المالَ . »

لَكِنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَطْمَئِنَّ لِكَلامِهِ . وأَصَرَّتْ أَنْ يَحْضُرَ صاحِبُهُ لِيَتَسَلَّما الأَمانَةَ مَعًا كَما اشْتَرَطا . ادَّعى عامِرٌ الغَضَبَ وصاحَ بِها :

« أَلَمْ أَقُلْ لَكِ إِنَّهُ قَدْ ماتَ ؟ هَلْ تُريدينَ أَنْ آتِيَ بِهِ مِنْ قَبْرِهِ لِيَتَسَلَّمَ مَعي النُّقودَ ؟ أَمْ تُريدينَ الاسْتيلاءَ عَلى النُّقودِ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ ، وتَخونينَ الأَمانَةَ ؟ »

وعِنْدَئِذٍ لَمْ تَجِدِ الْمَرْأَةُ مَفَرًّا مِنْ أَنْ تُعْطِيَهُ النُّقودَ ، حَتّى لا يُشيعَ عَنْها خِيانَةَ الأَمانَةِ .

ومَضَتْ سَنَةٌ أُخْرى ، ونَسِيَتِ العَجوزُ الأَمانَةَ وصاحِبَيْها .

وذاتَ يَوْمٍ ، بَيْنَما كانَتِ العَجوزُ جالِسَةً في دارِها ، سَمِعَتْ طَرْقًا عَلى البابِ ، فَقامَتْ لِتَفْتَحَ ؛ فَإِذا أَمامَها عِرْفانُ . اضْطَرَبَتِ الْمَرْأَةُ وتَراجَعَتْ مَذْعورَةً ، وهِيَ تُتَمْتِمُ بِبِضْعِ كَلِماتِ اسْتِعاذَةً بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ ، ثُمَّ تَمالَكَتْ نَفْسَها وقالَتْ : « هَلْ بُعِثَ الْمَوْتى مِنَ القُبورِ ؟ »

فَضَحِكَ الرَّجُلُ قائِلاً : « أَعوذُ بِاللهِ ! مَنْ قالَ لَكِ إِنَّني قَدْ مِتُّ ؟ »

قالَتِ العَجوزُ ، وقَدْ عاوَدَها بَعْضُ الاطْمِئْنانِ : « صاحِبُكَ عامِرٌ . فَقَدْ حَضَرَ وأَخَذَ النُّقودَ ، وادَّعى أَنَّكَ قَدْ مِتَّ ، وأَنَّهُ قَدْ دَفَنَكَ بِنَفْسِهِ . »

عِنْدَئِذٍ تَظاهَرَ عِرْفانُ بِالغَضَبِ قائِلاً : « ومَنْ أَذِنَ لَكِ أَنْ تُسَلِّمي الأَمانَةَ لِعامِرٍ ؟ أَلَمْ نَشْتَرِطْ عَلَيْكِ أَلا تَدْفَعيها لِواحِدٍ مِنّا دونَ الآخَرِ ؟ »

ظَهَرَتِ الْحَيْرَةُ عَلى العَجوزِ ، وقالَتْ مُحاوِلَةً الدِّفاعَ عَنْ مَوْقِفِها : « ماذا كُنْتُ أَفْعَلُ وَقَدْ زَعَمَ لي أَنَّكَ قَدِمْتَ ، وكادَ يَتَّهِمُني بِخِيانَةِ الأَمانَةِ ؟»

لَكِنَّ عِرْفانَ تَمادى في غَضَبِهِ الْمُصْطَنَعِ وقالَ : « لا شَأْنَ لي بِهَذا ، لَقَدْ ضَيَّعْتِ الأَمانَةَ ، ولَمْ تَحْفَظي الشَّرْطَ ! رُدّي عَلَيَّ مالي ، وإلا شَكَوْتُكِ لِلْقاضي . »

ماذا تَفْعَلُ العَجوزُ الْمِسْكينَةُ . إزاءَ هَذِهِ الوَرْطَةِ ؟ سَتَكونُ فَضيحَةٌ عِنْدَما يَشْكوها لِلْقاضي ، ويَعْتَقِدُ النّاسُ أَنَّها قَدْ احْتالَتْ عَلَيْهِ ، وخانَتِ الأَمانَةَ ، وقَد اخْتَفى صاحِبُهُ ولَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ مُنْذُ أَخَذَ المالَ . أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ وماذا تَفْعَلُ ؟ هَلْ يَكونُ الْحَبْسُ جَزاءَ مَعْروفِها وأَمانَتِها ؟

وأَدْرَكَ عِرْفانُ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ وَقَعَتْ في الشَّرَكِ ، وأَنَّها تَبْحَثُ عَنْ طَريقَةٍ تَرُدُّ بِها المالَ ، فَقالَ مُهَدِّدًا :

« سَوْفَ أَعودُ إِلَيْكِ في الغَدِ ، فَإذا لَمْ تُحْضِري المالَ شَكَوْتُكِ لِلْقاضي !»

مَضى عِرْفانُ وهُوَ يَضْحَكُ في داخِلِهِ لِسَذاجَةِ الْمَرْأَةِ .

تُرى ماذا سَتَفْعَلُ ؟ لَيْسَ أَمامَها مِنْ حَلٍّ سِوى أَنْ تَرُدَّ لَهُ المالَ مَرَّةً أُخْرى كَيْ لا يَفْضَحَها .

فَكَّرَتِ العَجوزُ طَويلاً ، لَكِنَّها لَمْ تَجِدْ حَلا لِمُشْكِلَتِها !

كانَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ وَقْتَئِذٍ هُوَ الإمامَ عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِب - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - فَذَهَبَتْ إِلَيْهِ تَشْكو حالَها ، وتَعْرِضُ قَضِيَّتَها . وبَعْدَ أَنْ سَمِعَها الإمامُ اكْتَشَفَ بِذَكائِهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمِسْكينَةَ قَدْ وَقَعَتْ في بَراثِنِ مُحْتالَيْنِ فابْتَسَمَ قائِلاً :

« لا تَنْزَعِجي يا أُمّاهُ . سَوْفَ أَبْعَثُ في طَلَبِ الْمَدْعُوِّ عِرْفانَ ، وأَجِدُ لَكِ حَلا إنْ شاءَ اللهُ . »

انْصَرَفَتِ الْمَرْأَةُ وقَدْ داخَلَها الاطْمِئْنانُ لِمُؤازَرَةِ الإمامِ لَها . أَرْسَلَ الإمامُ في طَلَبِ عِرْفانَ ، ثُمَّ بادَرَهُ قائِلاً فَوْرَ حُضورِهِ : « ماذا تُريدُ ، يا عِرْفانُ ، مِنَ الْمَرْأَةِ العَجوزِ ؟»

فَقالَ عِرْفانُ مُصْطَنِعًا الدَّهْشَةَ : « مالي ، يا سَيِّدي . أُريدُ مالي !»

قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ : « نَعَمْ ، هُوَ مالُكَ ، لَكِنَّكَ

اشْتَرَطْتَ عَلَيْها أَلا تَدْفَعَ المالَ لأَحَدِكُما دونَ صاحِبِهِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قالَ عِرْفانُ باسْتِكانَةٍ : « بَلى ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ . »

قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ : « إذًا فاذْهَبْ وأَحْضِرْ صاحِبَكَ ؛ لِتَدْفَعَ إِلَيْكُما المالَ كَما اشْتَرَطْتُما . »

وأَدْرَكَ عِرْفانُ أَنْ الأَميرَ قَدْ كَشَفَ حيلَتَهُ وحيلَةَ صاحِبِهِ ؛ فَمَضى مَكْسوفًا خَزْيانَ ، وَخَرَجَتِ الْمَرْأَةُ وهِيَ تَدْعو لأَميرِ الْمُؤْمِنينَ !

واحِدَةٌ بِواحِدَةٍ !

اُشْتُهِرَ « الْمُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ » ، أَميرُ البَحْرَيْنِ في عَهْدِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ ، بِقَسْوَتِهِ في مُعامَلَةِ أَهْلِ البَحْرَيْنِ ، حَتّى ضاقوا بِغِلْظَتِهِ وتَشَدُّدِهِ ، ولِذَلِكَ فَقَدْ فَرِحوا فَرَحًا كَبيرًا عِنْدَما أَصْدَرَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ أَمْرًا بِعَزْلِهِ مِنْ وِلايَةِ البَحْرَيْنِ ، لَكِنَّهُمْ خافوا أَنْ يَسْتَخْدِمَ الْمُغيرَةُ ذَكاءَهُ ؛ فَيَعودَ عَلَيْهِمْ والِيًا مَرَّةً أُخْرى .

وكانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ شَديدًا حازِمًا في مُعامَلَةِ الوُلاةِ والأُمَراءِ ، يَكْرَهُ أَنْ يَأْخُذَ أَحَدُهُمْ لِنَفْسِهِ مِنْ مالِ الْمُسْلِمينَ دِرْهَمًا بِغَيْرِ حَقٍّ ؛ مُسْتَغِلا في ذَلِكَ مَنْصِبَهُ أَوْ سُلْطَتَهُ ؛ لِذا فَقَدْ فَكَّرَ أَهْلُ البَحْرَيْنِ في طَريقَةٍ يَكيدونَ بِها لِلْمُغيرَةِ عِنْدَ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ، فَلا يَخْطُرُ بِبالِهِ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَلَيْهِمْ ثانِيَةً ؛ بِذَلِكَ يَتَّقونَ شَرَّ قَسْوَتِهِ وشِدَّتِهِ .

جَمَعَ الأَهالي مِنْ بَيْنِهِمْ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وأَرْسَلوا بِها

رَسولاً خاصّاً إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، حَيْثُ كانَ يُقيمُ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ في ذَلِكَ الوَقْتِ . وعِنْدَما بَلَغَ رَسولُهُمُ الْمَدينَةَ ، مَضى مِنْ فَوْرِهِ إلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ المالَ قائِلاً :

« تَفَضَّلْ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ . هَذا المالُ اكْتَسَبَهُ الْمُغيرَةُ مِنَ الأَهالي أَيّامَ وِلايَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وحَفِظَهُ عِنْدي أَمانَةً . »

لَمّا سَمِعَ عُمَرُ ذَلِكَ لَمْ يَتَسَرَّعْ في الْحُكْمِ عَلى الْمُغيرَةِ ، بَلْ أَرادَ أَنْ يَتَثَبَّتَ مِنَ الأَمْرِ كَعادَتِهِ ؛ فَبَعَثَ في طَلَبِ الْمُغيرَةِ . وما إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتّى ابْتَدَرَهُ قائِلاً :

« يَزْعُمُ هَذا الرَّجُلُ أَنَّ لَكَ عِنْدَهُ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، اكْتَسَبْتَها في أَثْناءِ إِمارَتِكَ عَلَيْهِمْ ، وقَدْ جاءَ يَرُدُّها إِلى بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمينَ ، فَما قَوْلُكَ ؟ »

أَدْرَكَ الْمُغيرَةُ بِذَكائِهِ أَنَّها حيلَةٌ مُدَبَّرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ ؛ لِيوغِروا صَدْرَ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عَلَيْهِ ؛ فَقالَ :

« لَقَدْ كَذَبَ الرَّجُلُ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، بَلْ وخانَ الأَمانَةَ ؛ فَإِنَّ لي عِنْدَهُ مِئَتَيْ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، ولَيْسَ مائَةً واحِدَةً ! »

عِنْدَئِذٍ أُسْقِطَ في يَدِ الرَّجُلِ ، واعْتَراهُ الاضْطِرابُ ، في حينَ اسْتَطْرَدَ عُمَرُ : « وما حَمَلَكَ عَلى اكْتِسابِ المالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ؟ »

فَقالَ الْمُغيرَةُ بِلَهْجَةِ الْمُعْتَذِرِ : « إِنَّما هِيَ الحاجَةُ وكَثْرَةُ العِيالِ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ! »

وأَدْرَكَ البَحْرَيْنِيُّ أَنَّ الْمُغيرَةَ قَدْ أَوْقَعَ بِهِ في شَرَكٍ لا مَهْرَبَ لَهُ مِنْهُ ، وعَلَيْهِ أَنْ يَعودَ إِلى بَلْدَتِهِ ، ويَجْمَعَ مائَةَ أَلْفٍ أُخْرى ، مِمّا يُضاعِفُ خَسارَتَهُمْ دونَ أَنْ يَبْلُغوا هَدَفَهُمُ الْمَنْشودَ . وكادَ يُجَنُّ مِنَ الغَيْظِ ، فَأَسْرَعَ قائِلاً :

« يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، أَرْجو أَلا تَتَعَجَّلَ في الْحُكْمِ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيَّ . فالْحَقيقَةُ أَنَّ الْمُغيرَةَ بَريءٌ مِمّا اتَّهَمْتُهُ بِهِ ، ولَيْسَ لَهُ عِنْدي مائَتانِ ولا مائَةٌ واحِدَةٌ . »

نَظَرَ عُمَرُ باسْتِغْرابٍ إِلى الْمُغيرَةِ ، فَإِذا ابْتِسامَةُ الظَّفَرِ تَرْتَسِمُ عَلى وَجْهِهِ ، وقالَ : « حَقّاً ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، هُوَ ما قالَ آخِراً . لَقَدْ كَذَبَ في أَوَّلِ حَديثِهِ لِيَكيدَ لي عِنْدَكَ . فَقُلْتُ ما قُلْتُ لأُخْزِيَهُ . وقَدْ أَخْزاهُ اللهُ . »

كيسُ التُّراب

مُنْذُ ثلاثةَ عشَرَ قرْنًا ، فَتحَ العَرَبُ إسْبانيا ، واتَّخذوها وَطَنًا عَرَبِيًّا ، وأقاموا فيها حُكْمًا عادِلاً ، وأَنْشئوا بها حَضارَةً عَظيمَةً ، لا تَزالُ آثارُها قائمَةً تَشْهَدُ بِتِلْكَ العَظَمَةِ ، مِنْها القُصورُ الفَخْمَةُ والبَساتينُ الْجَميلَةُ . وقَدْ دامَ حُكْمُهُمْ هُناكَ تِسْعَةَ قُرونٍ ، أَقاموا خِلالَها الْجُسورَ والقَناطِرَ ، ومَهَّدوا الطُّرُقَ ، ونَشَروا العِلْمَ ، وارْتَقَوْا بِالفُنونِ .

وكانَ مِنْ أُمَراءِ العَرَبِ في تِلْكَ البِلادِ أميرٌ عَظيمٌ اسْمُهُ الْحَكَمُ بْنُ هِشام ؛ وكانَ مَشْهورًا بِالعَزْمِ والْحَزْمِ ، وسُرْعَةِ البَتِّ في الأُمورِ .

وذاتَ يَوْمٍ مَرَّ الأميرُ على قِطْعَةِ أَرْضٍ جَميلَةٍ خالِيَةٍ مِنَ الزِّراعَةِ ، بِالقُرْبِ مِنْ مَدينَةِ قُرْطُبَةَ ، عاصِمَةِ البِلادِ آنَذاكَ . وكانَتْ تُحيطُ بِالأَرْضِ مَناظِرُ جَميلَةٌ أَخَذَتْ بِلُبِّ

الأَميرِ ، فَخاطَبَ نَفْسَهُ قائلاً : « حقًّا ، ما أَجْمَلَ أَنْ أُنْشِئَ في هَذِهِ الأَرْضِ بُسْتانًا جَميلاً ، يُطِلُّ عَلى هَذِهِ الْمَناظِرِ الطَّبيعِيَّةِ السّاحِرَةِ ! »

وبِلا تَرَدُّدٍ أَصْدَرَ الأَميرُ أَوامِرَهُ إلى عُمّالِهِ أَنْ يُنْشِئوا البُسْتانَ في تِلْكَ البُقْعَةِ مِنَ الأَرْضِ . ثُمَّ أَرْسَلَ أَحَدَ أَتْباعِهِ يَسْأَلُ عَنْ صاحِبِ هَذِهِ الأَرْضِ ، ويَعْرِضُ عَلَيْهِ مَبْلَغًا كَبيرًا مُقابِلَها . وعَرَفَ التّابِعُ أَنَّ صاحِبَ الأَرْضِ امْرَأَةٌ مِنَ البِلادِ ، فَعَرَضَ عَلَيْها طَلَبَ الأَميرِ ، وراحَ يُغْريها بِالمالِ الكَثيرِ ، لَكِنَّ الْمَرْأَةَ رَفَضَتْ ، وأَصَرَّتْ على رَفْضِها ، غَيْرَ مُبالِيَةٍ بِالثَّمَنِ الكَبيرِ الَّذي عَرَضَهُ عَلَيْها .

احْتارَ رَسولُ الأَميرِ فيما يَفْعَلُ ، وخَشِيَ أَنْ يَعودَ إلى الأَميرِ ويُخْبِرَهُ بِما حَدَثَ مِنَ الْمَرْأَةِ ، فَيَثورَ ويَغْضَبَ عَلَيْهِ وعَلَيْها . ولَمّا فَشِلَ تَمامًا في إقْناعِها ، دَفَعَهُ خَوْفُهُ إلى أَنْ يُبادِرَ بِإنْشاءِ البُسْتانِ رَغْمَ أَنْفِ الْمَرْأَةِ ؛ واعْتِمادًا عَلى سُلْطانِ الأَميرِ وقُوَّتِهِ . ولَمْ تَمْضِ بِضْعَةُ أَسابيعَ حَتّى كانَ البُسْتانُ الْجَميلُ قَدْ أُنْشِئَ ، وزُرِعَتْ فيهِ الزُّروعُ

والأَشْجارُ ، وأُقيمَ فيهِ قَصْرٌ جَميلٌ ، يَليقُ بِمَكانَةِ أَميرِ البِلادِ وعَظَمَتِهِ .

أَصابَ الْمَرْأَةَ حُزْنٌ كَبيرٌ ، بَعْدَ أَنْ رَأَتِ الأَميرَ قَدِ اسْتَوْلى عَلى أَرْضِها واغْتَصَبَها بالقُوَّةِ ، وحارَتْ فيما تَفْعَلُ وهِيَ الْمَرْأَةُ الضَّعيفَةُ وهُوَ أَميرُ البِلادِ القَويُّ . وراحَتْ تُسائِلُ نَفْسَها : « كَيْفَ سَمَحَ الأَميرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَفْعَلَ هَذا ، وهُوَ الْمَشْهورُ بِعَدالَةِ حُكْمِهِ ؟»

وأَخيرًا هَداها تَفْكيرُها أَنْ تَشْكُوَ الأَميرَ إِلى قاضي الْمَدينَةِ ، الَّذي أَصابَتْهُ الدَّهْشَةُ هُوَ الآخَرَ ، و أَخَذَ يُفَكِّرُ فيما يُمْكِنُهُ عَمَلُهُ مَعَ الأَميرِ العَظيمِ .. هَلْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُواجِهَهُ ويُخْبِرَهُ بِحَقيقَةِ ما حَدَثَ ، ويُطالِبَهُ بِرَدِّ الأَرْضِ الْمُغْتَصَبَةِ إلى صاحِبَتِها ؟ هَلْ يَجِدُ في نَفْسِهِ الْجُرْأَةَ عَلى ذَلِكَ ؟ وبَيْنَما هُوَ في حَيْرَتِهِ وتَفْكيرِهِ تَذَكَّرَ قَوْلَ الرَّسولِ ﷺ : إِنَّ الْمُؤْمِنَ كَيِّسٌ فَطِنٌ . وأَدْرَكَ أَنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ يَحْتالَ لِهَذا الأَمْرِ بِحيلَةٍ ذَكِيَّةٍ ، تُناسِبُ مَقامَ الأَميرِ وعَظَمَتَهُ ، وتُذَكِّرُهُ في نَفْسِ الوَقْتِ بِما عُرِفَ عَنْهُ مِنْ عَدْلٍ ونَزاهَةٍ .

وذاتَ يَوْمٍ كانَ الأَميرُ جالِسًا في البُسْتانِ ، يُمَتِّعُ عَيْنَيْهِ بِما يَحوطُهُ مِنْ مَناظِرَ رائِعَةٍ ، وفي أَثْناءِ جُلوسِهِ مَرَّ بِهِ قاضي الْمَدينَةِ راكِبًا حِمارَهُ عَلى عادَةِ النّاسِ في ذَلِكَ الزَّمانِ ، وعِنْدَما اقْتَرَبَ مِنْهُ نَزَلَ عَنْ حِمارِهِ ، وتَقَدَّمَ



فَحَيّا الأَميرَ ، الَّذي نَهَضَ بدَوْرِه يُبادِلُهُ التَّحيَّةَ ، ويَدْعوهُ إلى الْجُلوسِ مَعَهُ ؛ لِيَعْرِفَ مِنْهُ أَحْوالَ الرَّعيَّةِ ، ويُشارِكَهُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ مُتْعَةَ النَّظَرِ إلى جَمالِ الْحَديقَةِ ، وما يُحيطُها مِنْ طَبيعَةٍ خَلابَةٍ ساحِرَةٍ . ولَبّى القاضي دَعْوَةَ الأَميرِ ، ثُمَّ أَخَذَ يُحَدِّثُهُ عَنْ أَحْوالِ النّاسِ في الْمَدينَةِ ، وما يَنْعَمونَ بِهِ مِنْ رَغَدِ العَيْشِ في ظِلِّ حُكْمِهِ العادِلِ النَّزيهِ . ثُمَّ حَكى لِلأَميرِ حِكايَةَ الْمَرْأَةِ صاحِبَةِ الأَرْضِ الَّتي أَنْشَأَ عَلَيْها بُسْتانَهُ ، والَّتي اغْتَصَبَها أَتْباعُهُ مِنْها . ثُمَّ بادَرَ قائِلاً :

« إنَّ الْمَرْأَةَ ، يا مَوْلايَ ، تُريدُ فَقَطْ أَنْ تَمْلأَ هَذا الكيسَ مِنْ تُرابِ أَرْضِها . »

تَطَلَّعَ إلَيْهِ الأَميرُ بِاسْتِغْرابٍ ، وقالَ : « لا تُريدُ غَيْرَ هَذا ؟ »

« نَعَمْ ، يا مَوْلايَ ، فَهِيَ تُحِبُّ هَذِهِ الأَرْضَ . »

قالَ الأَميرُ دونَ أَنْ تُفارِقَهُ الدَّهْشَةُ : « حَسَنًا ، فَلْتَأْخُذْ ما تُريدُ . »

وتَقَدَّمَ القاضي فَمَلأَ الكيسَ الَّذي كانَ يَحْمِلُهُ في يَدِهِ ، وعِنْدَما أَرادَ أَنْ يَرْفَعَهُ لِيَحْمِلَهُ ، لَمْ يَسْتَطِعْ ، فَقالَ لِلْمَلِكِ : « أَرْجوكَ أَنْ تُساعِدَني في رَفْعِهِ ، يا مَوْلايَ . »

ازْدادَتْ دَهْشَةُ الأَميرِ لِطَلَبِهِ ، لَكِنَّهُ قامَ عَنْ كُرْسِيِّهِ ؛ لِيُعاوِنَهُ عَلى حَمْلِ الكيسِ الْمُمْتَلِئِ بِالتُّرابِ ، لَكِنَّ الكيسَ كانَ ثَقيلاً جِدًّا ، فَلَمْ يَسْتَطيعا مَعًا أَنْ يَرْفَعاهُ . واعْتَدَلَ الأَميرُ وقَدْ بَدا عَلَيْهِ التَّعَبُ والإرْهاقُ ، فَبادَرَهُ القاضي قائِلاً : « أَ رَأَيْتَ ، يا مَوْلايَ ؟ إنَّ هَذا الكيسَ لَيْسَ فيهِ سِوى قَدْرٍ ضَئيلٍ مِنْ تُرابِ هَذِهِ الأَرْضِ ، الَّتي اغْتَصَبَها أَتْباعُكَ مِنَ الْمَرْأَةِ صاحِبَتِها . »

بَدَتِ الْحَيْرَةُ والتَّساؤُلُ عَلى وَجْهِ الْمَلِكِ ، في حينَ اسْتَطْرَدَ القاضي قائِلاً : « إذا كُنّا مَعًا ، يا مَوْلايَ ، لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَحْمِلَ هَذا القَدْرَ الضَّئيلَ مِنْ تُرابِها – فَكَيْفَ تَقْوى وَحْدَكَ عَلى حَمْلِ وِزْرِها يَوْمَ القِيامَةِ ، وتُواجِهُ بِهِ رَبَّكَ ؟ »

عِنْدَئِذٍ أَدْرَكَ الأَميرُ مَغْزى حَديثِ القاضي ، وأَعْجَبَتْهُ

فِطْنَتُهُ وكِياسَتُهُ ؛ فَأَمَرَ أَنْ يُهْدى لِلْمَرْأَةِ قَصْرُ الأَميرِ الَّذي عَلى هَذِهِ الأَرْضِ ، وأَنْ تُرَدَّ إلَيْها أَرْضُها بِما عَلَيْها مِنْ زُروعٍ وأَشْجارٍ .

الأَسْئِلَةُ الثَّلاثَة

كانَ أَحَدُ الأُمَراءِ شابًّا كَثيرَ الإعْجابِ بِنَفْسِهِ ، مُسْرِفًا في الكِبْرياءِ عَلى النّاسِ ، خَشِنَ اللَّفْظِ ، غَليظَ القَلْبِ في مُعامَلَتِهِمْ . ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ يَسُرُّهُ قَدْرَ أَنْ يَرى في نَظَراتِهِمُ الْخَوْفَ والرُّعْبَ حينَ يَرَوْنَهُ .

وكانَ أَيْضًا يُحِبُّ الرِّحْلاتِ والتَّنَقُّلَ في أَرْجاءِ البِلادِ ؛ لَيْسَ بِغَرَضِ التَّمَتُّعِ بِهَذِهِ الرِّحْلاتِ ، وإنَّما لِيَلْتَقِيَ النّاسَ ، ويَشْهَدَ عَلى وُجوهِهِمْ مَظاهِرَ الْخَوْفِ والتَّعْظيمِ والرَّجاءِ .

وذاتَ يَوْمٍ خَرَجَ كَعادَتِهِ يَتَجَوَّلُ في أَنْحاءِ البِلادِ ، فَلَقِيَ في طَريقِهِ شَيْخًا مِنْ شُيوخِ الْمَساجِدِ ، وقَدْ نَضَحَتْ قَسَماتُ وَجْهِهِ بِالتَّقْوى والوَرَعِ والرِّضا ، فَغاظَتْهُ كَثيرًا مَظاهِرُ السَّعادَةِ الَّتي تَرْتَسِمُ عَلى وَجْهِ الرَّجُلِ الشَّيْخِ ، وأَرادَ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِ سَعادَتَهُ ، ويُنَغِّصَ عَلَيْهِ هُدوءَهُ –

فَمضى إلَيْهِ قائِلاً في غَطْرَسَةٍ : « أَ لا تَخْشاني ، يا شَيْخُ ؟ »

وإذا الشَّيْخُ يَقولُ بِبَساطَةٍ تَنِمُّ على إيمانٍ صادِقٍ : « ولِماذا أَخْشاكَ ؟ أَنا لا أَخافُ سِوى اللهِ - خالِقي وخالِقِكَ . »

بُهِتَ الأَميرُ لِجَسارَةِ الشَّيْخِ ، واسْتَبَدَّ بِهِ الغَيْظُ ، وسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخَبيثَةُ أَنْ يُكَدِّرَ عَلَيْهِ عَيْشَهُ ، فَقالَ مُصْطَنِعًا الهُدوءَ :

« آه . عِنْدَكَ حَقٌّ . لَكِنْ ما سِرُّ هَذِهِ الْجُرْأَةِ ، وأَنْتَ رَجُلٌ فَقيرٌ مَحْدودُ الرِّزْقِ ؟ »

اِبْتَسَمَ الشَّيْخُ قائِلاً : « ذَلِكَ لأَنَّ اللهَ حَباني قَلْبًا مُؤْمِنًا ونَفْسًا راضِيَةً . . ولا شَيْءَ يُفْسِدُ حَياةَ النّاسِ غَيْرُ الْخَوْفِ والطَّمَعِ ! »

قالَ الأَميرُ في خُبْثٍ ، دونَ أَنْ يَحيدَ عَنْ بُغْيَتِهِ في تَنْغيصِهِ : « حَقًّا ، ما أَحْكَمَكَ أَيُّها الشَّيْخُ الْجَليلُ ! قُلْ لي . . »

ورَمَقَهُ الشَّيْخُ بِتَوَجُّسٍ ، فاسْتَطْرَدَ قائِلاً :

« هَلْ تَسْتَطيعُ حِكْمَتُكَ هَذِهِ أَنْ تُجيبَني عَنْ ثَلاثَةِ أَسْئِلَةٍ تُحَيِّرُني ؟ »

وتَبَيَّنَ الشَّيْخُ نَواياهُ السَّيِّئَةَ ، لَكِنَّهُ هَزَّ رَأْسَهُ في إيجابٍ ، فَأَرْدَفَ الأَميرُ : « لَكِنْ حَذارِ أَنْ تَغُشَّ في الإجابَةِ عَنْها ؛ لأَنَّني في هَذِهِ الحالَةِ سَوْفَ آمُرُ بِكَ أَنْ تَطوفَ الْمَدينَةَ راكِبًا حِمارًا و وَجْهُكَ إلى الْخَلْفِ . »

وظَهَرَ الاضْطِرابُ عَلى الشَّيْخِ ، لَكِنَّهُ لاذَ بِالصَّمْتِ ، في حينَ راحَ الأَميرُ الْمَغْرورُ يَنْظُرُ إلَيْهِ في سَعادَةٍ وشَماتَةٍ ، ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ قالَ :

« أَمّا السُّؤالُ الأَوَّلُ فَهُوَ : لَوْ أَنَّني رَكِبْتُ حِصاني ، فَفي كَمْ مِنَ السّاعاتِ والدَّقائِقِ يُمْكِنُني أَنْ أَطوفَ حَوْلَ العالَمِ ؟ »

وبَدَتِ الْحَيْرَةُ عَلى الشَّيْخِ ، فاسْتَطْرَدَ الأَميرُ : « وأَمّا السُّؤالُ الثّاني فَهُوَ : كَمْ يَبْلُغُ ثَمَني بِالدَّنانيرِ والدَّراهِمِ حينَ أَرْتَدي أَفْخَرَ ثِيابي ، وأُتِمُّ زينَتي ؟ »

وازْدادَ اضْطِرابُ الشَّيْخِ .

« وأَمّا السُّؤالُ الثّالِثُ فَهُوَ : ما الَّذي أُفَكِّرُ فيهِ الآنَ ؟ »

وعَقَلَ الاضْطِرابُ لِسانَ الشَّيْخِ فَلَمْ يُحِرْ جَوابًا ، في حينَ لاحَتْ آياتُ السَّعادَةِ عَلى وَجْهِ الأَميرِ ، الَّذي لَوى عِنانَ جَوادِهِ ، قائِلاً : « سَوْفَ أُمْهِلُكَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ لِتُفَكِّرَ في الإِجابَةِ ، وأَعودُ إِلَيْكَ بَعْدَها . »

ثُمَّ مَضى لِشَأْنِهِ ، تارِكًا الشَّيْخَ في حالَةٍ يُرْثى لَها مِنَ الْحَيْرَةِ والضِّيقِ !

لَمْ يَهْنَأِ الشَّيْخُ بِعَيْشٍ أَوْ مَنامٍ مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ ؛ فَقَدْ ظَلَّ يُفَكِّرُ في إِجابَةٍ لِهَذِهِ الأَسْئِلَةِ الْمُحَيِّرَةِ ، لَكِنَّهُ أَبَدًا لَمْ يَهْتَدِ إِلى جَوابٍ . وباتَ يُرْعِبُهُ أَنْ يَتَخَيَّلَ مَنْظَرَهُ راكِبًا حِمارًا ، و وَجْهُهُ إِلى الْخَلْفِ ، ومُمْسِكًا بِذَيْلِهِ بَدَلَ اللِّجامِ ، بَلْ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَتَسَمَّعُ ضَحِكاتِ النّاسِ السّاخِرَةَ ، وهُمْ يَرَوْنَهُ عَلى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الْمُزْرِيَةِ ولِحْيَتُهُ تَتَدَلّى عَلى صَدْرِهِ !

وفي الصَّباحِ التّالي ، وهُوَ غارِقٌ في حَيْرَتِهِ وقَلَقِهِ ، مَرَّ

بِهِ صَديقٌ كانَ يَأْنَسُ لِصُحْبَتِهِ ، فَلَمّا رَآهُ الصَّديقُ عَلى هَذِهِ الحالِ ، سَأَلَهُ في جَزَعٍ : « ما بِكَ ، يا سَيِّدي ؟ أَراكَ مَهْمومًا . . هَلْ أَوْشَكَتِ القِيامَةُ أَنْ تَقومَ ؟ »

« اللهُ أَعْلَمُ ، يا عَزيزي ، لَكِنَّهُ الأَميرُ الْمَغْرورُ ، أَرادَ أَنْ يُذِلَّني وَ . . . »

واسْتَطْرَدَ يَحْكي لَهُ قِصَّتَهُ مَعَ الأَميرِ حَتّى قالَ :

« وكَما تَرى ، فَإِنَّ مُشْكِلَتي عَظيمَةٌ ، لا يَقْدِرُ عَلى حَلِّها أَحْكَمُ النّاسِ . »

وابْتَسَمَ الصَّديقُ قائِلاً : « سَيِّدي ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّني رَجُلٌ فَقيرٌ ، قَليلُ الْمَعْرِفَةِ ، لَكِنَّني - بِإِذْنِ اللهِ - سَوْفَ أَحُلُّ لَكَ الْمُشْكِلَةَ ، بِشَرْطِ أَنْ تُعْطِيَني ثِيابَكَ ، وتَأْذَنَ لي بِلِقاءِ الأَميرِ بَدَلاً مِنْكَ ، فَإِنِ اقْتَنَعَ فَبِها ، وإِلا حَمَلَني بَدَلاً مِنْكَ عَلى الْحِمارِ . »

كانَ الشَّيْخُ يَتَأَمَّلُ صاحِبَهُ مُنْذُ بَدْءِ حَديثِهِ ، وكَأَنَّهُ يَراهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وعَجِبَ كَيْفَ لَمْ يُلاحِظْ مِنْ قَبْلُ ذَلِكَ الشَّبَهَ الكَبيرَ بَيْنَ وَجْهَيْهِما ، وإِنْ كانَ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلى النَّحافَةِ .

وبلا تَرَدُّدٍ وافَقَ الشَّيْخُ عَلى الاقْتِراحِ ، وأَحَسَّ أَنَّ صاحِبَهُ قَدْ أَزاحَ عَنْ كاهِلِهِ هَمًّا ثَقيلاً .

ولَمّا حانَ الْمَوْعِدُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ بَيْنَ الشَّيْخِ والأَميرِ ، أَرْسَلَ الأَميرُ في طَلَبِ الشَّيْخِ ، فَمَضى إِلَيْهِ الصَّديقُ في زِيِّ الشَّيْخِ ، وكَأَنَّهُ هُوَ تَمامًا .

فَلَمّا رَآهُ الأَميرُ ابْتَدَرَهُ قائِلاً : « ما لي أَراكَ قَدْ أَصابَتْكَ النَّحافَةُ مُنْذُ لِقائي بِكَ ! »

واسْتَشْعَرَ الرَّجُلُ الشَّماتَةَ في لَهْجَةِ الأَميرِ ، فَقالَ :

« هَذا بِسَبَبِ كَثْرَةِ تَفْكيري في إِجابَةِ الأَسْئِلَةِ الصَّعْبَةِ ، يا مَوْلايَ . »

ضَحِكَ الأَميرُ في سَعادَةٍ ، كَأَنَّما أَحْرَزَ نَصْرًا ساحِقًا عَلى جُيوشِ أَعْدائِهِ ، ثُمَّ هَتَفَ بِهِ :

« وَهَلْ عَثَرْتَ عَلى إِجابَةِ أَسْئِلَتي ؟ حَذارِ أَنْ تُوَرِّطَ نَفْسَكَ بِإِجاباتٍ خاطِئَةٍ ، وإِلا فَتَذَكَّرْ عِقابي ! »

رَدَّ الرَّجُلُ بِهُدوءِ الواثِقِ : « عَثَرْتُ عَلى الإِجابَةِ

الصَّحيحَةِ – بِإِذْنِ اللهِ – يا مَوْلايَ . »

« هاتِ ما عِنْدَكَ . »

قالَ الرَّجُلُ : « فَأَمّا الوَقْتُ الَّذي تَسْتَغْرِقُهُ في الطَّوافِ حَوْلَ العالَمِ مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ جَوادِكَ – فَإِنَّهُ أَرْبَعٌ وعِشْرونَ ساعَةً بِالتَّمامِ والكَمالِ ، لَوْ أَنَّكَ بَدَأْتَ الرِّحْلَةَ مَعَ أَوَّلِ خُيوطِ الشَّمْسِ ، وكانَتْ سُرْعَتُكَ مِثْلَ سُرْعَتِها في الدَّوَرانِ ! »

فَكَّرَ الأَميرُ في إِجابَتِهِ فَلَمْ يَجِدْ ما يَعيبُها ، وما كانَتْ هَذِهِ الإِجابَةُ تَخْطُرُ لَهُ عَلى بالٍ . وانْتَقَلَ مُكْرَهًا إِلى السُّؤالِ الثّاني ، فَقالَ الرَّجُلُ بِنَفْسِ الثِّقَةِ :

« وأَمّا سُؤالُكَ عَنْ ثَمَنِكَ وأَنْتَ في أَفْخَرِ ثِيابِكَ ، وأَتَمِّ زينَتِكَ – فَإِنَّهُ تِسْعٌ وعِشْرونَ قِطْعَةً مِنَ الفِضَّةِ . »

وحَدَّقَ فيهِ الأَميرُ بِنَظْرَةٍ مَغيظَةٍ مُحْنَقَةٍ ، وسَأَلَ بِاسْتِغْرابٍ : « ولِمَ هَذا الرَّقْمُ بِالذّاتِ ؟ »

قالَ الرَّجُلُ : « لأَنَّ الْمَسيحَ عليه السلام قَدْ بيعَ بِثَلاثينَ قِطْعَةً مِنَ الفِضَّةِ ، ولا أَظُنُّ أَنَّكَ أَغْلى قيمَةً مِنَ السَّيِّدِ

الْمَسيحِ . »

ولَمْ يُعْجِب الأَميرَ هَذا الرَّدُّ ، لَكِنَّهُ خَشِيَ إنِ اعْتَرَضَ أَنْ يُتَّهَمَ بِالكُفْرِ – فانْتَقَلَ مُكْرَهًا مَغيظًا إلى السُّؤالِ الثّالِثِ قائِلاً في كِبْرِياءَ :

« حَسَنًا . أَخْبِرْني ماذا أُفَكِّرُ فيهِ الآنَ ، وتَذَكَّرْ أَنّي لَنْ أُعْفيَكَ مِنَ العِقابِ إنْ عَجَزْتَ . »

ودونَ أَنْ تَطْرِفَ لِلرَّجُلِ عَيْنٌ ، تَنِمُّ على حَيْرَةٍ أَوِ اضْطِرابٍ – ابْتَسَمَ قائِلاً : « إنَّكَ ، يا مَوْلايَ ، تُفَكِّرُ الآنَ أَنَّ الواقِفَ أَمامَكَ هُوَ شَيْخُ الْمَسْجِدِ ! »

وحَدَّقَ فيهِ الأَميرُ قائِلاً باسْتِغْرابٍ ودَهْشَةٍ :

« نَعَمْ ، فَمَنْ تكونُ إذًا . إنْ لَمْ تكُنْ شَيْخَ الْمَسْجِدِ الَّذي أَعْرِفُهُ ؟ »

وبادَرَ الرَّجُلُ فَخَلَعَ ثِيابَهُ ، أَيْ ثِيابَ الشَّيْخِ ؛ لِتَظْهَرَ تَحْتَها ثِيابُهُ الحَقيقِيَّةُ ، ثُمَّ قالَ :

« إنّني ، يا مَوْلايَ ، صَديقٌ لِلشَّيْخِ – مُجَرَّدُ راعٍ مِنْ

رُعاةِ الغَنَمِ ، حَلَلْتُ مَحَلَّهُ ! »

ولَمْ يَتَمالَكِ الأَميرُ نَفْسَهُ فَأَغْرَقَ في الضَّحِكِ ، ثُمَّ قالَ :

« حَقًّا ، إنَّكَ جَريءٌ وحَكيمٌ في الوَقْتِ نَفْسِهِ . »

وسَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ اسْتَطْرَدَ : « لِذا ، سَوْفَ أُعْطيكَ كُلَّ ما تَطْلُبُهُ مِنّي ، وسَوْفَ أَجْعَلُكَ شَيْخًا لِلْمَسْجِدِ بَدَلاً مِنْهُ . »

لَكِنَّ الرَّجُلَ اعْتَرَضَ قائِلاً : « لا ، يا مَوْلايَ . أَرْجو أَنْ يَبْقى الشَّيْخُ كَما هُوَ في مَسْجِدِهِ مَدى حَياتِهِ ، وهَذا كُلُّ ما أُريدُهُ مِنْ مُكافَأَةٍ ، فَهُوَ صَديقي ، وأَنا أَعْتَزُّ بِصَداقَتِهِ ! »

قالَ الأَميرُ بِلَهْجَةِ الإعْجابِ : « يا لَكَ – حَقًّا – مِنْ صَديقٍ مُخْلِصٍ ! لَيْتَ بَيْنَ رِجالي كَثيرينَ في مِثْلِ مَوَدَّتِكَ وإخْلاصِكَ . حَسَنًا . . سَوْفَ يَبْقى الشَّيْخُ في مَسْجِدِهِ ، أَمّا أَنْتَ فَسَوْفَ تَعيشُ مَعَ أُسْرَتِكَ في قَصْري ، فإنَّ مِثْلَكَ قَليلٌ نادِرٌ ! »

الدِّهانُ السِّحْرِيُّ !

كانَ رَجُلٌ يَمْتَلِكُ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ الجِمالِ . وذاتَ يَوْمٍ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَبيعَ عَشَرَةَ جِمالٍ مِنْها ، فَساقَها إلى أَوَّلِ طَريقِ البادِيَةِ ؛ عَلى أَمَلٍ أَنْ يَشْتَرِيَها مِنْهُ بَعْضُ تُجّارِ القَوافِلِ بِثَمَنٍ غالٍ .

وَما كادَ يَبْلُغُ طَريقَ البادِيَةِ حَتّى أَطْلَقَ جِمالَهُ العَشَرَةَ تَرْعى العُشْبَ النّابِتَ في رِمالِ الصَّحْراءِ ، و وَقَفَ غَيْرَ بَعيدٍ مِنْها ، يَنْتَظِرُ مُرورَ إحْدى القَوافِلِ .

وَبَيْنَما هُوَ واقِفٌ يَنْتَظِرُ ، مَرَّ بِهِ شَيْخٌ كَبيرٌ فَحَيّاهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ بَعْضَ الماءِ لِيَرْوِيَ ظَمَأَهُ ، فَدَفَعَ إلَيْهِ الْجَمّالُ بِقِرْبَتِهِ ، فَشَرِبَ الشَّيْخُ حَتّى ارْتَوى ، ثُمَّ رَدَّ إلَيْهِ القِرْبَةَ وقالَ :

« لَقَدْ كُنْتُ حَقًّا في غايَةِ الظَّما ، وقَدْ أَسْدَيْتَ إلَيَّ مَعْروفًا كَبيرًا ، وأَرى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُكافِئَكَ عَلى هَذا

الْمَعْروفِ . »

وَتَأَمَّلَهُ الْجَمّالُ باسْتِغْرابٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ مَظْهَرُهُ يَنِمُّ على ثَراءٍ ، فَقَطْ كانَ يَحْتَفِظُ تَحْتَ إِبطِهِ بِصُنْدوقٍ صَغيرٍ يَعْتَريهِ البِلى . فَقالَ لَهُ باسْتِخْفافٍ :

« وما الَّذي يُمْكِنُكَ أَنْ تُقَدِّمَهُ لي ، وأَنْتَ لا تَمْلِكُ غَيْرَ . . . »

لَكِنَّ الشَّيْخَ قاطَعَهُ قائِلاً : « لا ، لَيْسَ هَذا بِالْمُهِمِّ ، لَكِنْ لَوْ أَنَّكَ صَحِبْتَني في طَريقي ، فَسَوْفَ أَدُلُّكَ عَلى كَنْزٍ دَفينٍ ، وكُلُّ ما أَطْلُبُهُ مِنْكَ أَنْ تَتَنازَلَ لي عَنْ خَمْسَةِ جِمالٍ ، أَحْمِلُ عَلَيْها نَصيبي مِنَ الكَنْزِ . »

لَمْ يُفَكِّرِ الْجَمّالُ طَويلاً ، فَقَدْ كانَ العَرْضُ مُغْرِيًا ، فَسَوْفَ يَغْتَرِفُ هُوَ الآخَرُ حُمولَةَ الْجِمالِ الْخَمْسَةِ الأُخْرى مِنْ هَذا الكَنْزِ ، ويَغْدو ثَرِيًّا ، ولِذَلِكَ وافَقَ عَلى الفَوْرِ . ومَضى بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ يَعْبُرانِ الصَّحْراءَ ، حَتّى بَلَغا طَريقًا ضَيِّقًا يَقَعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَقالَ الْجَمّالُ :

« إلى أَيْنَ تَأْخُذُني ، يا شَيْخُ ؟ »

فَقالَ الشَّيْخُ : « اِتْبَعْني ولا تَخَفْ . لَقَدْ أَوْشَكْنا أَنْ نَبْلُغَ مَكانَ الكَنْزِ . »

وظَلّا سائِرَيْنِ حَتّى بَلَغا تَلا يَسُدُّ الطَّريقَ ، فَوَقَفَ الشَّيْخُ وأَشارَ بِيَدِهِ قائِلاً : « هُنا الكَنْزُ ! »

تَطَلَّعَ الرَّجُلُ حَوْلَهُ فَلَمْ يَرَ غَيْرَ صَخْرَةٍ ناتِئَةٍ في الْجَبَلِ ، وإذا الشَّيْخُ يَمْضي إِلَيْها ويَضْرِبُ عَلَيْها ثَلاثَ ضَرَباتٍ ؛ فَتَنْفَرِجُ عَنْ بابٍ ضَيِّقٍ يَتَّسِعُ لِدُخولِ شَخْصٍ واحِدٍ ، فَتَسَلَّلَ مِنْهُ الشَّيْخُ ، ثُمَّ أَمَرَ الْجَمّالَ أَنْ يَتْبَعَهُ .

دَخَلَ الْجَمّالُ فَإِذا هُوَ في حُجْرَةٍ فَسيحَةٍ مَحْفورَةٍ داخِلَ الصَّخْرِ ، وفيها صَناديقُ كَثيرَةٌ ، فَتَحَها الشَّيْخُ الواحِدَ تِلْوَ الآخَرِ ، فَإِذا هِيَ جَميعًا مُمْتَلِئَةٌ بالذَّهَبِ واللآلِئِ والْجَواهِرِ الَّتي لا تَخْطِرُ بِبالٍ . وأَخَذَتِ الدَّهْشَةُ الْجَمّالَ فَأَطْلَقَ صَيْحَةَ فَرَحٍ ، وانْدَفَعَ يَمْلأُ



أَوْعِيَتَهُ ويَحْشو جُيوبَهُ ياقوتًا وماسًا ولآلِئَ ، وعَيْناهُ تَبْرُقانِ بِنَظَراتِ الْجَشَعِ والطَّمَعِ .

فَلَمّا خَرَجا مِنْ بابِ الكَنْزِ ، سَدَّ الشَّيْخُ البابَ بِالصَّخْرَةِ



كَما كانَ ، وذَلكَ بأَنْ طَرَقَ عَلى جانِبِها طَرْقَةً واحِدَةً هَذِهِ الْمَرَّةَ . ثُمَّ ما لَبِثا أَنْ وَضَعا الصَّناديقَ عَلى ظُهورِ الجِمالِ ، وكَرّا عائِدَيْنِ .

وفي الطَّريقِ راحَ الْجَمّالُ يَلْتَهِمُ بِنَظَراتِهِ الْجَشِعَةِ الصَّناديقَ الْمُمْتَلِئَةَ بِالْجَواهِرِ ، ثُمَّ يَعودُ فَيَرْمُقُ الشَّيْخَ بِنَظْرَةٍ غَريبَةٍ . كانَ سُؤالٌ خَبيثٌ يَتَرَدَّدُ بِداخِلِهِ :

« بِأَيِّ حَقٍّ يَأْخُذُ هَذا الشَّيْخُ حِمْلَ خَمْسَةِ جِمالٍ مِثْلي ؟ ولَوْلا أَنَّني أَعْطَيْتُهُ الجِمالَ الْخَمْسَةَ – ما اسْتَطاعَ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنَ الكَنْزِ ! »

ولَمْ يَلْبَثْ أَنِ اقْتَرَبَ مِنَ الشَّيْخِ قائِلاً :

« أَنْتَ تَعْرِفُ ، يا شَيْخُ ، أَنَّهُ لَوْلا جِمالي ما أَمْكَنَكَ أَنْ تَحْمِلَ شَيْئًا مِنَ الكَنْزِ ، أَلا يَكْفيكَ حِمْلُ جَمَلٍ واحِدٍ ؟ »

أَدْرَكَ الشَّيْخُ أَنَّ شَهْوَةَ الطَّمَعِ قَدِ اسْتَبَدَّتْ بِالرَّجُلِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ :

« لَكَ ما تُريدُ ، يا جَمّالُ . خُذْ حِمْلَ تِسْعَةِ جِمالٍ ، واتْرُكْ لي حِمْلَ جَمَلٍ واحِدٍ . . حَسْبي ذَلِكَ . »

واسْتَمَرّا سائِرَيْنِ في طَريقِ عَوْدَتِهِما ، لَكِنَّ شَيْطانَ الطَّمَعِ عادَ يُوَسْوِسُ لِلْجَمّالِ : « شَيْخٌ هَرِمٌ كَهَذا ، رِجْلُهُ كَما يَقولونَ والقَبْرُ – ما حاجَتُهُ إِلى حِمْلِ الْجَمَلِ ؟ » ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَنا مِنَ الشَّيْخِ قائِلاً :

« بِاللهِ عَلَيْكَ ، يا شَيْخُ ، ما حاجَتُكَ إِلى حِمْلِ الْجَمَلِ ، وأَنْتَ رَجُلٌ زاهِدٌ في الدُّنْيا ؟ ثُمَّ إِنَّكَ بِذَلِكَ سَوْفَ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَمَلِ وبَقِيَّةِ أُسْرَتِهِ مِنَ الجِمالِ . »

تَأَمَّلَهُ الشَّيْخُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِنَظْرَةٍ طَويلَةٍ ، ثُمَّ قالَ بِلَهْجَةٍ لا تَخْلو مِنْ سُخْرِيَةٍ : « صَدَقْتَ ؛ يا جَمّالُ ، فَلَيْسَ مِنَ الرَّحْمَةِ حَقًّا أَنْ أُفَرِّقَ بَيْنَ الْجَمَلِ وأُسْرَتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ جَمَلُكَ لا جَمَلي . »

وكادَ الْجَمّالُ يَطيرُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ . . أَيُّ ثَرْوَةٍ هائِلَةٍ تِلْكَ الَّتي هَبَطَتْ عَلَيْهِ مِنَ السَّماءِ ؟ وخَيْرًا فَعَلَ الشَّيْخُ ، فَقَدْ كانَ الْجَمّالُ عَلى اسْتِعْدادٍ لِقَتْلِهِ والتَّخَلُّصِ مِنْهُ ؛ كَيْ يَسْتَحْوِذَ دونَهُ عَلى الثَّرْوَةِ .

وعادا فاسْتَأْنَفا سَيْرَهُما والشَّيْخُ ساهِمٌ لا يَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ ،

كَأَنَّما يَتَوَقَّعُ مِنَ الْجَمّال مَطْلَبًا آخَرَ ، وفِعْلاً كانَ الْجَمّالُ يَخْتَلِسُ النَّظَرَ إلى الصُّنْدوق القَديم الَّذي يَتأَبَّطُهُ الشَّيْخُ بِعِنايَةٍ شَديدَةٍ ، وحِرْصٍ بالغٍ ، وكَأَنَّ بِداخِلِه ثَرْوَةً تفوقُ



ما تَحْمِلُهُ الجِمالُ العَشَرَةُ ! فَقالَ في نَفْسِهِ : « لَوْلا أَنَّ في الصُّنْدوق شَيْئًا أَغْلى مِمّا تَحْمِلُهُ الجِمالُ العَشَرَةُ - ما احْتَضَنَهُ الشَّيْخُ بِهَذا الْحِرْصِ الشَّديد . » وما لَبِثَ أَنِ اقْتَرَبَ مِنْهُ قائِلاً : « قُلْ لي ، يا شَيْخُ ، ماذا يَحْوي هَذا الصُّنْدوقُ ؟»

وأَدْرَكَ الشَّيْخُ ما يَجولُ بِخاطِرِه فَقالَ :

« لا شَيْءَ صَدِّقْني ! ما فيهِ سِوى حُقِّ دِهانٍ !»

لَكِنَّ الْجَمّالَ لَبِثَ يَرْمُقُهُ بِنَظْرَةٍ مُريبَةٍ ، ثُمَّ قالَ : « وما فائِدَةُ هَذا الدِّهان ؟»

قالَ الشَّيْخُ : « إِنَّهُ في الْحَقيقَةِ دِهانٌ سِحْرِيٌّ . . لَوْ أَنَّكَ دَهَنْتَ بِهِ جَفْنَ عَيْنِكَ اليُمْنى - فَإِنَّكَ سَوْفَ تَرى بِها الكُنوزَ الْمُخَبَّأَةَ في جَوْفِ الأَرْضِ ، ولَوْ كانَتْ على بُعْدِ أَمْيالٍ !»

حَدَّق فيهِ الْجَمّالُ ذاهلاً ؛ فَقَدْ صَدَقَ حَدْسُهُ إذاً ، ولَيْسَ مِنَ الْمَعْقول أَنْ يَتَنازَلَ عَنْهُ الشَّيْخُ بِسُهولَةٍ ، فَلا حُجَّةَ لَهُ فيهِ . ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ باغَتَهُ وانْقَضَّ عَلَيْهِ فانْتَزَعَ مِنْهُ الصُّنْدوقَ ، وأَخْرَجَ حُقَّ الدِّهانِ ، فَدَهَنَ بِهِ جَفْنَ عَيْنِهِ اليُمْنى . ولَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ حَتّى صارَ بَصَرُهُ حَديدًا كَبَصَرِ النَّسْرِ ، ورَأى بالفِعْلِ ما تَحْتَ الأَرْضِ مِنْ أَنْهارِ مِياهٍ وَمعادِنَ وكُنوزٍ دَفينَةٍ ، وكادَ يُجَنُّ لِفَرْطِ دَهْشَتِهِ . . تُرى ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَوْ دَهَنَ أَيْضًا جَفْنَ عَيْنِهِ اليُسْرى ؟ سَوْفَ تُضاعَفُ حِدَّةُ بَصَرِهِ ، وتَغْدو كُنوزُ الأَرْضِ كُلُّها مِلْكَهُ وَحْدَهُ .

وإذا الشَّيْخُ يَصيحُ بِهِ قائِلاً : « أَعْرِفُ ما تُسَوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ . . حَذارِ أَنْ تَدْهُنَ بِهِ جَفْنَ عَيْنِكَ اليُسْرى – وإلا فَقَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ ! »

لَمْ يُصَدِّقِ الْجَمّالُ الشَّيْخَ ، فالدِّهانُ هُوَ الدِّهانُ ، ولا تَخْتَلِفُ عَيْنُهُ اليُمْنى عَنِ اليُسْرى في شَيْءٍ ، اللَّهُمَّ إلا مِنْ فَرْقٍ طَفيفٍ في الشَّوْفِ . . لِيَدْهُنْ إذًا عَيْنَهُ اليُسْرى .

لَكِنَّهُ ما كادَ يَفْعَلُ حَتّى أَطْلَقَ صَيْحَةً مُدَوِّيَةً : « آهْ ! آهْ ! لَقَدْ فَقَدْتُ بَصَري ! لَقَدْ عَميتُ ! خُذْ جِمالي كُلَّها بِما تَحْمِلُ مِنْ مالٍ وجَواهِرَ ، ورُدَّ عَلَيَّ بَصَري ! »

فَقالَ الشَّيْخُ بلَهْجَةٍ آسِفَةٍ : « لَقَدْ نَصَحْتُكَ فَلَمْ تَسْمَعْ نُصْحي . . جَرَفَتْكَ أَطْماعُكَ الشِّرّيرَةُ . وصَدِّقْني ، لا حيلَةَ لي في رَدِّ بَصَرِكَ . »

وعادَ الْجَمّالُ يَهْتِفُ مُسْتَغيثًا بالشَّيْخِ :

« لَقَدْ أَخْطَأْتُ في حَقِّكَ ، يا شَيْخُ ، أَخْطَأْتُ فاغْفِرْ لي ، ورُدَّ إلَيَّ بَصَري ، أَوْ . . أَوْ دُلَّني عَلى الطَّريقَةِ الَّتي أَسْتَرِدُّهُ بها ، حَتّى يُمْكِنَني العَوْدَةُ إلى بَيْتي وأَوْلادي . »

قالَ الشَّيْخُ : « صَدِّقْني ، لا أَعْرِفُ طَريقَةً لِذَلِكَ . . لَكِنْ يُمْكِنُكَ العَوْدَةَ إلى بَيْتِكَ لَوْ تَعَلَّقْتَ بِذَيْلِ جَمَلٍ مِنْ جِمالِكَ العَشَرَةِ . »

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ صَوْتُ الشَّيْخِ أَنِ انْقَطَعَ ، فَتَحَيَّرَ الْجَمّالُ ، أَيْنَ ذَهَبَ وتَرَكَهُ ، ورَفَعَ يَدَيْهِ إلى أَعْلى ، وصارَ يَتَحَسَّسُ الفَراغَ الْمُحيطَ بِهِ ، حَتّى لامَسَتْ يَداهُ ذَيْلَ

جَمَلٍ مِنْ جِمالِهِ ، فَكَأَنَّما اسْتَرَدَّ روحَهُ الْمَفْقودَةَ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ ومَشى وَراءَهُ ، حَتّى بَلَغَ دارَهُ فَدَخَلَ ، وإذا ابْنَتُهُ تَصيحُ بِهِ بِلَهْجَةٍ مُسْتَغْرِبَةٍ : « ماذا حَدَثَ ، يا أَبَتِ ؟ لِماذا تُغْمِضُ عَيْنَيْكَ ؟ وما هَذا الَّذي تُمْسِكُ بِهِ ؟»



ولَمْ يَفْهَمِ الرَّجُلُ شَيْئًا مِنْ حَديثِ ابْنَتِهِ ، وفَتَحَ عَيْنَيْهِ بِحَرَكَةٍ لا إراديَّةٍ ، فَإذا بِهِ يَرى يَدَيْهِ وقَدْ أَمْسَكَتا بِذَيْلِ جَمَلٍ مَبْتورٍ ، ولا جَمَلَ هُنالِكَ ! ومِنْ ثَمَّ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ قَطَعَ الطَّريقَ إلى البَيْتِ مُمْسِكًا بِهَذا الذَّيْلِ العَجيبِ الْمَقْطوعِ ، أَمّا الجِمالُ جَميعُها بِما تَحْمِلُ مِنْ كُنوزٍ وجَواهِرَ ، فَقَدِ اخْتَفَتْ ولا أَثَرَ لَها ! ولَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ كُلِّ ما كانَ يَمْلِكُ غَيْرُ هَذا الذَّيْلِ - فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ !



أخو الْمَلِك !

أَخَذَ حارِسُ بَوّابَةِ القَصْرِ الْمَلَكِيِّ يَتَأَمَّلُ الرَّجُلَ القادِمَ نَحْوَهُ مِنْ بَعيدٍ . كانَ رَثَّ الثِّيابِ ، مُعَفَّرَ الوَجْهِ ، يَشي مَظْهَرُهُ بالفَقْرِ . فَلَمّا اقْتَرَبَ مِنْهُ قالَ بِبَساطَةٍ : « أُريد أَنْ أُقابِلَ الْمَلِكَ ؟»

حَدَّقَ فيهِ الحارِسُ بِدَهْشَةٍ ثُمَّ قالَ بِضيق :

« الْمَلِكُ مَشْغولٌ . . إِنَّهُ يُسَيِّرُ أُمورَ الدَّوْلَةِ ، ولا وَقْتَ عِنْدَهُ لِلِقاءِ أَمْثالِكَ !»

حَكَّ الرَّجُلُ الفَقيرُ رَأْسَهُ ، ومَضى عائِدًا دونَ أَنْ يُعَقِّبَ بِشَيْءٍ ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ مَظْهَرَهُ الرَّثَّ لَنْ يُمَكِّنَهُ بِأَيِّ حالٍ مِنْ لِقاءِ الْمَلِكِ ، والدُّنْيا مَظاهِرُ كَما يُقالُ . لَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَهُ بِالثِّيابِ النَّظيفَةِ الأَنيقَةِ ، وهُوَ الفَقيرُ شِبْهُ الْمُعْدَمِ .

وتَذَكَّرَ أَحَدَ جيرانِهِ الْمَيْسوري الحالِ ، فَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ

إِلَيْهِ ويَسْتَعيرَ مِنْهُ بَعْضَ الْمَلابِسِ الثَّمينَةِ ؛ عَسى أَنْ يَتَقَبَّلَ الحارِسُ مَظْهَرَهُ ، ويَعْتَقِدَ أَنَّهُ شَخْصٌ آخَرُ ، ويَرْضى أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِلِقاءِ الْمَلِكِ .

وكانَتْ سَعادَتُهُ بالِغَةً عِنْدَما رَضِيَ جارُهُ الْمَيْسورُ أَنْ يُعيرَهُ بَعْضَ ثِيابِهِ الفاخِرَةِ ، ومَضى مِنْ فَوْرِهِ إِلى الحارِسِ في مَظْهَرِهِ الْجَديدِ ، وطَلَبَ مِنْهُ بِلَهْجَةٍ لَيِّنَةٍ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِلِقاءِ الْمَلِكِ لأَمْرٍ هامٍّ ، لَكِنَّهُ فوجِئَ بِالحارِسِ يُقَطِّبُ جَبينَهُ قائِلاً : « الْمَلِكُ مَشْغولٌ بِأُمورِ الدَّوْلَةِ ، ولَيْسَ عِنْدَهُ وَقْتُ فَراغٍ . تَعالَ بَعْدَ شَهْرٍ !»

اِسْتَبَدَّ الغَيْظُ بالرَّجُلِ ، وأَصابَتْهُ الْحَيْرَةُ . . إِذًا فَلَمْ يُفْلِحِ الْمَظْهَرُ الْحَسَنُ في أَنْ يُبْلِغَهُ مَأْرَبَهُ . ماذا يَفْعَلُ إِذًا ؟ سَوْفَ يَموتُ جوعًا هُوَ وزَوْجَتُهُ وأَبْناؤُهُ ، وهُوَ يُريدُ أَنْ يُقابِلَ الْمَلِكَ لِيَسْأَلَهُ إِحْسانًا ، يُمَكِّنُهُ مِنَ الاسْتِمْرارِ في العَيْشِ ، حَتّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كانَ مَفْعولاً . ولَمْ يَجِدْ مَفَرًّا مِنَ العَوْدَةِ مَخْذولاً مَهْمومًا ، يُفَكِّرُ في طَريقَةٍ أُخْرى تُمَكِّنُهُ مِنْ لِقاءِ الْمَلِكِ الْمَعْروفِ بِكَرَمِهِ .



ظَلَّ يُفَكِّرُ طولَ اللَّيْلِ . فَلَمّا أَشْرَقَ الصَّباحُ ، ارْتَدى ثِيابًا مُخْتَلِفَةً ، وبَدَّلَ مِنْ مَظْهَرِهِ ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ الحارِسُ وهُوَ يَتَقَدَّمُ مِنْهُ قائِلاً : « مِنْ فَضْلِكَ أُريدُ أَنْ أُقابِلَ الْمَلِكَ . »

فَقالَ الحارِسُ بِلَهْجَةٍ زاجِرَةٍ :

« ومَنْ أَنْتَ حَتّى تُقابِلَ الْمَلِكَ ؟ ماذا تُريدُ مِنْهُ ؟ »

وعِنْدَئِذٍ عَقَدَ جَبينَهُ قائِلاً في لَهْجَةٍ شِبْهِ غاضِبَةٍ :

« أَنا أَخوهُ ، يا غَبِيُّ ! قُلْ لَهُ أَخوكَ يُريدُ أَنْ يُقابِلَكَ ! »

ظَهَرَ الاضْطِرابُ عَلى وَجْهِ الحارِسِ ، لَكِنَّ اضْطِرابَهُ سَرْعانَ ما تَحَوَّلَ إلى حَيْرَةٍ ، عِنْدَما تَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ قَبْلُ عَنْ أَخٍ لِلْمَلِكِ ، لَكِنْ مَنْ يَدْري ، رُبَّما كانَ لَهُ أَخٌ يَسْكُنُ بَلْدَةً بَعيدَةً ، أَوْ كانَ عَلى سَفَرٍ . وأَفاقَ مِنْ شُرودِهِ قائِلاً في لَهْجَةٍ طَيِّبَةٍ :

« أَرْجو أَنْ تَنْتَظِرَ حَتّى أُبْلِغَ الْمَلِكَ . »

وَتَأَمَّلَهُ الْمَلِكُ بِاسْتِغْرابٍ ، وهُوَ يُبْلِغُهُ أَنَّ أَخاهُ يُريدُ أَنْ يَلْقاهُ . تُرى مَنْ يَكونُ هَذا الرَّجُلُ ؟ وماذا يُريدُ ؟ ولِمَ

يَدَّعي هَذا الادِّعاءَ ؟ وأثارَهُ الأَمْرُ ، فَقالَ : « إذًا ، دَعْهُ يَدْخُلْ ! »

ومَرَّتِ الدَّقائِقُ بَطيئَةً ، حَتّى أَقْبَلَ الرَّجُلُ عَلى الْمَلِكِ في صُحْبَةِ الحارِسِ . وأَخَذَ الْمَلِكُ يتأَمَّلُهُ باسْتِغْراب . إنَّهُ لَمْ يَرَ هَذِهِ الخِلْقَةَ مِنْ قَبْلُ ، كَيْفَ جَرُؤَ عَلى هَذا الادِّعاءِ السَّخيفِ ؟ وبَعْدَ أَنْ صَرَفَ الحارِسَ هَتَفَ بِهِ :

« تَقَدَّمْ ، يا رَجُلُ . . مَنْ أَنْتَ ؟ »

وفي بَساطَةٍ غَريبَةٍ قالَ الرَّجُلُ : « أنا أَخوكَ ، يا مَوْلايَ . أَلَسْنا كُلُّنا أَبْناءَ آدَمَ وحَوّاءَ ؟ »

أَدْرَكَ الْمَلِكُ حيلَةَ الرَّجُلِ ؛ فَهَزَّ رَأْسَهُ قائِلاً : « بَلى . وماذا تُريدُ ؟ »

قالَ في ضَراعَةٍ : « لَقَدْ هَدَّني الفَقْرُ ، يا مَوْلايَ ، وأُريدُ أَنْ تَجودَ عَلَيَّ مِنْ خَيْرِكَ . »

وعَلى الفَوْرِ صاحَ الْمَلِكُ بِالحارِسِ الَّذي هَرْوَلَ قائِلاً : « أَمْرُ مَوْلايَ . »

فَقالَ الْمَلِكُ بِهُدوءٍ : « أَعْطِ هَذا الرَّجُلَ دينارًا ، ودَعْهُ يَنْصَرِفْ . »

وحَمْلَقَ فيهِ الرَّجُلُ بِاسْتِغْرابٍ وقالَ : « دينارًا واحِدًا ، يا مَوْلايَ ! »

فَقالَ الْمَلِكُ بِلَهْجَةٍ جادَّةٍ : « نَعَمْ . . وهَذا كَثيرٌ ، لأَنَّني لَوْ أَعْطَيْتُ كُلَّ واحِدٍ مِنْ إخوَتي مِنْ عَهْدِ آدَمَ دينارًا واحِدًا لَما بَقِيَ في خِزانَةِ الدَّوْلَةِ دِرْهَمٌ واحِدٌ . »

ولَمْ يَجِدِ الرَّجُلُ مَفَرًّا مِنْ أَنْ يَنْحَنِيَ تَحِيَّةً لِلْمَلِكِ ، ويَهُمَّ بِالانْصِرافِ وهُوَ حَزينٌ !

وعِنْدَئِذٍ بادَرَهُ الْمَلِكُ قائِلاً وهُوَ يَضْحَكُ :

« تَعالَ ، ابْنَ آدَمَ . لَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِدينارٍ لأَنَّكَ أَخي . أَما وأَنَّكَ مِنْ رَعِيَّتي - فَإِنّي آمُرُ لَكَ بِعَشَرَةِ دَنانيرَ ؛ مُكافَأَةً لَكَ عَلى هَذِهِ الحيلَةِ الظَّريفَةِ ، الَّتي أَذْهَبَتْ عَنِّي الهَمَّ والتَّعَبَ ! »

وعِنْدَئِذٍ تَهَلَّلَ وَجْهُ الرَّجُلِ ، وحَيّا الْمَلِكَ في حَماسٍ ، وانْصَرَفَ مَسْرورًا .

الْحُكَماءُ الأَرْبَعَة

أَرادَ أَحَدُ الْمُلوكِ القُدَماءِ أَنْ يَفْرِضَ ضَريبَةً جَديدَةً عَلى شَعْبِهِ ، فاسْتَدْعى وُزَراءَهُ الأَرْبَعَةَ الْمَشْهورينَ بالحِكْمَةِ والتَّدْبيرِ ، وشاوَرَهُمْ في الأَمْرِ كَعادَتِه ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُوافِقوهُ عَلى فَرْضِ هَذِهِ الضَّريبَةِ ، فَهُمْ أَكْثَرُ اقْتِرابًا مِنَ النّاسِ ، ويَعْرِفونَ أَنَّهُ لا طاقَةَ لَهُمْ بِذَلِكَ .

وكانَ الْمَلِكُ يَتَوقَّعُ مِنْ وُزَرائِهِ أَنْ يُوافِقوهُ ، ولِذا فَقَدْ فوجِئَ بِمُعارَضَتِهِمْ ، مِمّا أَثارَ غَضَبَهُ وضيقَهُ - فَعَزَلَهُمْ وجَرَّدَهُمْ مِنْ أَمْوالِهِمْ ، وأَمَرَهُمْ بِمُغادَرَةِ البِلادِ .

مَضى الوُزَراءُ الأَرْبَعَةُ في طَريقِهِمْ خارِجَ البِلادِ ، فَرَأَوْا في أَثْناءِ سَيْرِهِمْ أَثَرًا حَديثًا لأَقْدامِ جَمَلٍ . ولَمّا كانَ الطَّريقُ طَويلاً فَقَدْ خَطَرَ بِبالِهِمْ أَنْ يُبَدِّدوا وَحْشَةَ الطَّريقِ بِتَتَبُّعِ ذَلِكَ الأَثَرِ ، وأَنْ يُحاوِلوا بِحُكْمِ خِبْرَتِهِمُ التَّعَرُّفَ عَلى صِفاتِ ذَلِكَ الْجَمَلِ ، وما يُمَيِّزُهُ عَنْ سِواهُ مِنَ

الجِمالِ مِنْ خِلالِ ذَلِكَ الأَثَرِ .

وبَيْنَما هُمْ يَتَحَدَّثونَ - مَرَّ بِهِمْ أَحَدُ التُّجّارِ فَسَأَلَهُمْ :

« أَلَمْ يَمُرَّ بِكُمْ جَمَلٌ شارِدٌ أَثْناءَ سَيْرِكُمْ ؟ »

فَقالَ أَحَدُهُمْ : « هَلْ جَمَلُكَ هَذا أَعْرَجُ ؟ »

وقالَ الثّاني : « ولا بُدَّ أَنَّهُ أَعْوَرُ ! لا يُبْصِرُ بِعَيْنِهِ اليُمْنى . »

أَمّا الثّالِثُ فَقالَ : « هَلْ جَمَلُكَ هَذا أَبْتَرُ مَقْطوعُ الذَّنَبِ ؟ »

وقالَ الرّابِعُ : « هَلْ يَشْكو جَمَلُكَ أَلَمًا في بَطْنِهِ ؟ »

ارْتَسَمَتْ عَلاماتُ الدَّهْشَةِ عَلى وَجْهِ الرَّجُلِ ، وأَيْقَنَ أَنَّهُمْ - لا شَكَّ - قَدْ رَأَوْهُ . فَقالَ بِلَهْجَةٍ وَشَتْ بِسَعادَتِهِ : « إِذًا فَقَدْ رَأَيْتُموهُ . . أَيْنَ هُوَ إِذًا ؟ »

وهُنا ابْتَسَمَ الوُزَراءُ الأَرْبَعَةُ قائِلينَ : « واللهِ ما رَأَيْناهُ . »

عِنْدَئِذٍ ثارَتْ هَواجِسُ الرَّجُلِ ، واعْتَقَدَ أَنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْلَوْا عَلى جَمَلِهِ ، وباعوهُ أَوْ أَخْفَوْهُ ، وصاحَ بِهِمْ :

« كَيْفَ تُنْكِرونَ رُؤْيَتَهُ ، وقَدْ وَصَفْتُموهُ وَصْفًا دَقيقًا ، لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلا مَنْ رَآهُ ؟»

قالَ الوُزَراءُ : « رَأَيْنا آثارَهُ فَعَرَفْنا مِنْها صِفاتِهِ دونَ أَنْ نَراهُ . »

لَكِنَّ الهَواجِسَ ظَلَّتْ تَعْبَثُ بِقَلْبِ الرَّجُلِ ؛ فَمِنَ الجائِزِ جِدًّا أَنْ تَعْرِفَ صِفاتِ الشَّيْءِ بِآثارِهِ ، وثَمَّةَ أُناسٌ يَمْلِكونَ هَذِهِ الْمَقْدِرَةَ مِنْ خِلالِ خِبْراتِهِمْ ومَعارِفِهِمْ ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ الْمَعْقولِ أَنْ تَعْرِفَ بَعْضَ الصِّفاتِ دونَ مُعايَنَةِ الشَّيْءِ ذاتِهِ ، فَكَيْفَ عَرَفَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ أَعْوَرُ ؟ وكَيْفَ عَرَفَ الآخَرُ أَنَّهُ مَريضٌ بِمَعِدَتِهِ ؟ لا . . لا . . إِنَّهُمْ لُصوصٌ بِلا شَكٍّ . وما إِنْ وَصَلَ بِهِ التَّفْكيرُ إِلى هَذا الْحَدِّ حَتّى هَتَفَ بِهِمْ غاضِبًا : « لا ، يا سادَةُ ، إِنَّكُمْ تَكْذِبونَ . لَقَدْ رَأَيْتُموهُ بِالفِعْلِ ، وسَوْفَ أَشْكوكُمْ إِلى الْمَلِكِ . »

ثُمَّ تَرَكَهُمْ وقَصَدَ مِنْ فَوْرِهِ إِلى قَصْرِ الْمَلِكِ فَشَكاهُمْ إِلَيْهِ ، واتَّهَمَهُمْ بِسَرِقَةِ الْجَمَلِ . اِسْتَغْرَبَ الْمَلِكُ كَلامَ الرَّجُلِ ، رَغْمَ ثِقَتِهِ في أَمانَةِ وُزَرائِهِ ، واعْتَقَدَ أَنَّ الحاجَةَ

قَدْ دَفَعَتْهُمْ إِلى هَذِهِ الفَعْلَةِ بَعْدَ أَنْ طَرَدَهُمْ وجَرَّدَهُمْ مِنْ أَمْوالِهِمْ ، ومِنْ ثَمَّ اسْتَدْعاهُمْ . فَلَمّا مَثَلوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَصَرّوا عَلى إِنْكارِهِمْ رُؤْيَةَ الْجَمَلِ ، فَهَدَّدَهُمُ الْمَلِكُ بِالسَّجْنِ ، إِنْ لَمْ يَعْتَرِفوا بِالْحَقيقَةِ ، ثُمَّ قالَ : « سَوْفَ أودِعُكُمْ جَميعًا السِّجْنَ ، إِنْ لَمْ تَقولوا الْحَقيقَةَ . »

قالَ الوَزيرُ الأَوَّلُ : « لَقَدْ لاحَظْتُ ، يا مَوْلايَ ، آثارَ أَقْدامِهِ في الرَّمْلِ ، فَإِذا هِيَ ثَلاثَةٌ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لا يَدوسُ الأَرْضَ بِرِجْلِهِ الرّابِعَةِ ، أَيْ أَنَّهُ أَعْرَجُ . »

فَقالَ الْمَلِكُ ، مُوَجِّهًا كَلامَهُ إِلى الوَزيرِ الثّاني في لَهْجَةٍ ساخِرَةٍ : « وأَنْتَ ، يا حَصيفُ ، كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّهُ أَعْوَرُ ؟»

اِبْتَسَمَ الوَزيرُ ثُمَّ أَجابَ في بَساطَةٍ : « لَقَدْ لاحَظْتُ ، يا مَوْلايَ ، أَنَّهُ كانَ يَقْطُفُ أَوْراقَ الشَّجَرِ عَلى الجانِبِ الأَيْسَرِ فَقَطْ مِنَ الطَّريقِ ، ولَمْ يَمَسَّ مِنَ الجانِبِ الأَيْمَنِ وَرَقَةً ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَرى بِإِحْدى عَيْنَيْهِ ، وأَنَّ الأُخْرى عَوْراءُ . »

[illegible]

صَمْتٍ ، واسْتَطرَدَ مُخاطِبًا وَزيرَهُ الثالِثَ :

« وأَنْتَ ، أَيُّها الوَزيرُ ، كَيْفَ تُفَسِّرُ مَعْرِفَتَكَ أَنَّ الْجَمَلَ كانَ أَبْتَرَ بِلا ذَيْلٍ ؟»

قالَ الوَزيرُ : « لَقَدْ لاحَظْتُ ، يا مَوْلايَ ، آثارَ دِماءٍ [illegible] فَلا قُدْرَةَ لَهُ عَلى طَرْدِ البَعوضِ عَنْ ساقَيْهِ . »

[illegible] أَلَمًا في [illegible] يَدْفَعُهُ إِلى تَخْفيفِ الوَطْءِ بِرِجْلِهِ الْخَلْفِيَّةِ . »

ونَظَرَ الْمَلِكُ إِلى الرَّجُلِ قائِلاً : « أَرَأَيْتَ ، يا [illegible] أَنَّ كَلامَهُمْ وتَفْسيراتِهِمْ تَبْدو غايَةً في العَقْلِ والحِكْمَةِ . وهُمْ بِالفِعْلِ لَمْ يَرَوْا جَمَلَكَ الشّارِدَ . »

وسَكَتَ لَحْظَةً أَضافَ بَعْدَها : « وعَلى أَيَّةِ حالٍ

[illegible] أَقْوى مِنْهُ ؛ [illegible]

نَظَرَ الرَّجُلُ إِلى الْمَلِكِ بِاسْتِغْرابٍ ، ثُمَّ قالَ :

« أَسْتَغْفِرُ اللهَ ! أَيُّ فَضْلٍ لي في هَذا ، يا مَوْلايَ ؟ لَقَدْ جِئْتُ شاكِيًا . »

[illegible]

[illegible] بِمَشورَتِكُمْ دائِمًا . »

[illegible]

اللهُ كَفيلي !

كانَ « الحاجُّ مَنْصور » تاجرًا مِنْ كِبارِ التُّجّار ، يَجْلُبُ البَضائعَ الْجَيِّدَةَ والطَّرائِفَ والتُّحَفَ النَّفيسَةَ مِنْ أَسْواقِ الهِنْدِ والسِّنْدِ والصِّينِ ، ثُمَّ يَحْمِلُها عَلى سَفينَةٍ مِنْ سُفُنِ التِّجارَةِ إلى ميناءِ البَصْرَةِ ، حَيْثُ يَبيعُها ، ويَعودُ لِيَسْتَأْنِفَ رِحْلَتَهُ مَرَّةً أُخْرى . وقَدْ أَحَبَّهُ النّاسُ ووَثِقوا بِهِ ؛ لأَمانَتِهِ وسُمْعَتِهِ الطَّيِّبَةِ ، وحُسْنِ مُعامَلَتِهِ لَهُمْ .

وذاتَ يَوْمٍ اسْتَعَدَّ الحاجُّ مَنْصورٌ لِلسَّفَرِ ، كَعادَتِهِ ، لَكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ ما يَمْلِكُ مِنْ مالٍ لَنْ يَكْفِيَهُ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ ، فَقَصَدَ رَجُلاً كَريمًا مَعْروفًا مِنْ أَغْنِياءِ البَلْدَةِ ، وطَلَبَ مِنْهُ قَرْضًا عَلى أَنْ يَرُدَّهُ لَهُ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَعودَ مِنْ سَفْرَتِهِ . ولَمّا عَرَفَ الرَّجُلُ مَبْلَغَ القَرْضِ ، وَهُوَ أَلْفُ دينار ، قالَ مُتَرَدِّدًا : « واللهِ ، يا أَخي ، ما مَعي غَيْرُ هَذِهِ الأَلْفِ ، وسَوْفَ أَحْتاجُها بَعْدَ عِدَّةِ شُهورٍ . »

قالَ الحاجُّ مَنْصورٌ : « وإنِّي – بِإِذْنِ اللهِ – سَوْفَ أَرُدُّها لَكَ قَبْلَ هَذا الْمَوْعِدِ . »

لَكِنَّ الْحَيْرَةَ والتَّرَدُّدَ ظَلا مُرْتَسِمَيْنِ عَلى وَجْهِ الرَّجُلِ ، الَّذي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قالَ : « فَهَلْ عِنْدَكَ كَفيلٌ يَضْمَنُ أَداءَها في ذَلِكَ الْمَوْعِدِ ؟ »

قالَ الحاجُّ مَنْصورٌ ضاحِكًا : « اللهُ كَفيلي ، يا أَخي . »

فاسْتَحْيا الرَّجُلُ ولَمْ يَجِدْ ما يَرُدُّ بِهِ ، فَأَعْطاهُ المالَ ، ومَضى لِوَجْهَتِهِ .

رَكِبَ الحاجُّ مَنْصورٌ السَّفينَةَ الْمُهَيَّئَةَ لِلإبْحارِ مِنْ ميناءِ البَصْرَةِ في طَريقِها إلى الهِنْدِ . فَلَمّا بَلَغَها قَضى ما شاءَ مِنَ الوَقْتِ مُتَنَقِّلاً بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْمُدُنِ ، مُنْتَقِيًا أَجْوَدَ البَضائِعِ وأَنْفَسَ التُّحَفِ ، حَتّى اجْتَمَعَ لَهُ الكَثيرُ . وكانَ الْمَوْعِدُ الَّذي حَدَّدَهُ لِرَدِّ الدَّيْنِ لِصاحِبِهِ قَدْ أَوْشَكَ عَلى الاقْتِرابِ – فَقَرَّرَ العَوْدَةَ لِيَبيعَ ما لَدَيْهِ ويُسَدِّدَ الدَّيْنَ .

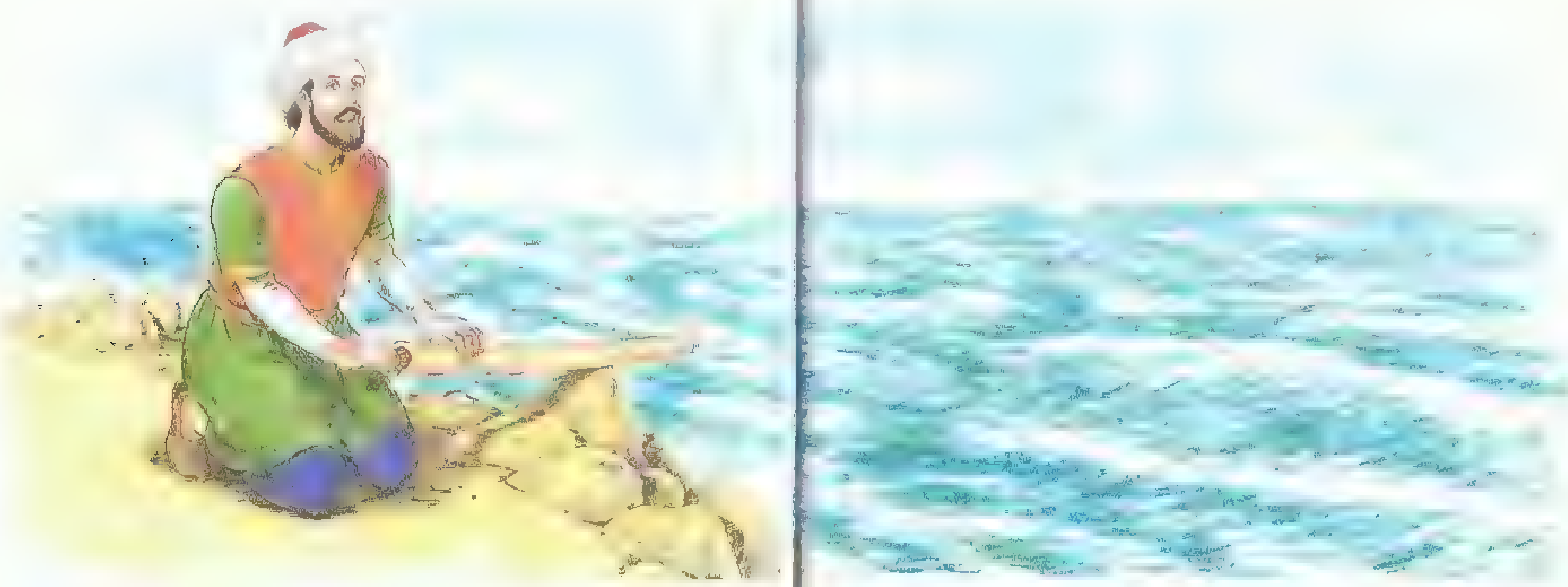
ولَمّا ذَهَبَ إلى الميناءِ يَسْتَطْلِعُ أَخْبارَ السُّفُنِ الَّتي سَتُبْحِرُ إلى ميناءِ البَصْرَةِ ، فُوجِئَ بِأَنَّ الرِّحْلَةَ قَدْ أُرْجِئَ مَوْعِدُها

[illegible]

الحاجَّ بِحُزْنٍ شَديدٍ ، خاصَّةً وهُوَ يَتَخَيَّلُ ضيقَ الرَّجُلِ وأَلَمَهُ ، مِنْ أَجْلِ حاجَتِهِ إلى المالِ .

وحَدَّثَ نَفْسَهُ قائِلاً : « لَيْتَني وَكَّلْتُ عَنّي كَفيلاً يَرُدُّ الدَّيْنَ في مَوْعِدِهِ إذا تَأَخَّرْتُ ، فَما ذَنْبُ هَذا الرَّجُلِ [illegible] قَوْلَهُ لِلرَّجُلِ : « إنَّ اللهَ كَفيلي . »

وعِنْدَئِذٍ خَطَرَتْ ببالِهِ فِكْرَةٌ ، بادَرَ إلى تَنْفيذِها ، [illegible] دينار ، ومَعَها رِسالَةٌ إلى صاحِبِهِ ، يَعْتَذِرُ فيها عَنْ تَأَخُّرِهِ في السَّدادِ عَنِ المَوْعِدِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِسَبَبِ البَحْرِ المالِحِ ، ثُمَّ أَلْقى بِالقَصَبَةِ في البَحْرِ قائِلاً :



« أَنْتَ كَفيلي ، يا رَبِّ ، في أَداءِ هَذا الدَّيْنِ إِلى صاحِبِهِ في مَوْعِدِهِ . »

ومَضَتِ القَصَبَةُ تَعْلو وتَهْبِطُ وَسْطَ الْمَوْجِ الثّائِرِ ، حَتّى غابَتْ عَنْ بَصَرِهِ .

وكانَ القَلَقُ قَدْ أَصابَ الرَّجُلَ صاحِبَ الدَّيْنِ نَظَرًا لِحاجَتِهِ الضَّرورِيَّةِ إِلى المالِ ؛ ولِذا كانَ يَذْهَبُ إِلى الميناءِ يَرْقُبُ عَوْدَةَ السَّفينَةِ الَّتي يُنْتَظَرُ قُدومُ « الحاجِّ مَنْصور » عَلَيْها ، لَكِنَّ شَيْئًا لَمْ يَظْهَرْ في الأُفُقِ . حَتّى كانَ يَوْمٌ عاصِفٌ ، وخَرَجَ الرَّجُلُ كَعادَتِهِ إِلى الميناءِ ، فَأَبْصَرَ الْمَوْجَ يَتَقاذَفُ بَعْضَ الأَعْشابِ ومِنْ بَيْنِها قَصَبَةٌ غَليظَةٌ ، ما زالَ بِها حَتّى أَلْقاها إِلى الشّاطِئِ قَريبًا مِنْهُ . وكانَ اليَأْسُ قَدْ أَصابَهُ ؛ فَقَرَّرَ العَوْدَةَ إِلى دارِهِ نَظَرًا لِسوءِ حالَةِ الجَوِّ ، وقَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ عائِدًا انْحَنى فَأَخَذَ كومَةَ الأَعْشابِ ومِنْ بَيْنِها القَصَبَةُ الغَليظَةُ ؛ لِيَسْتَدْفِئَ بِها مِنَ البَرْدِ .

وأَلْقى الرَّجُلُ الأَعْشابَ في النّارِ ، حَتّى جاءَ الدَّوْرُ

عَلى القَصَبَةِ ، فَأَمْسَكَ بِها ، واسْتَشْعَرَ ثِقَلَها عِنْدَما حاوَلَ أَنْ يَكْسِرَها ، فَجاءَ بِآلَةٍ حادَّةٍ ، وشَرَعَ في شَقِّها ، فَإِذا الدَّنانيرُ الذَّهَبِيَّةُ تَتَساقَطُ مِنْها ، وإِذا هِيَ أَلْفُ دينارٍ ، واشْتَدَّ عَجَبُهُ عِنْدَما تَذَكَّرَ أَنَّ اليَوْمَ هُوَ الْمَوْعِدُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ مَعَ « الحاجِّ مَنْصور » لِسَدادِ الدَّيْنِ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَجَدَ الرِّسالَةَ الَّتي وَضَعَها التّاجِرُ مَعَ الدَّنانيرِ ، فَتَأَكَّدَ بِذَلِكَ أَنَّ المالَ لَهُ ، وقَدْ أَوْصَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ في مَوْعِدِهِ ، فَسَجَدَ للهِ شُكْرًا .

وبَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، اعْتَدَلَ الْجَوُّ في الهِنْدِ ، وهَدَأَتِ العَواصِفُ ، واسْتَأْنَفَتْ السُّفُنُ نَشاطَها . فاسْتَأْجَرَ الحاجُّ مَنْصورٌ إِحْدى السُّفُنِ ، وعادَ حامِلاً بِضاعَتَهُ إِلى ميناءِ البَصْرَةِ ، فَما هِيَ إِلا بِضْعَةُ أَيّامٍ حَتّى أَعَدَّ مِنْ مالِهِ كيسًا بِهِ أَلْفُ دينارٍ ، ومَضى بِها مِنْ فَوْرِهِ إِلى التّاجِرِ ، وقَدْ جَهَّزَ في ذِهْنِهِ بِضْعَ كَلِماتِ اعْتِذارٍ عَنِ الْمَوْعِدِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ؛ بِسَبَبِ سوءِ الْجَوِّ .

ولَقِيَهُ الرَّجُلُ بِتَرْحابٍ كَبيرٍ ، فَعانَقَهُ وقَبَّلَهُ ، وحَمِدَ اللهَ

وقدَّمَهُ إلى صاحِبِهِ ، مُرَدِّدًا كَلِماتِ الاعْتِذارِ ؛ وإذا

في مَوْعِدِهِ ، وكانَتْ مَعَهُ رِسالَتُكَ !»

صَمَتَ الحاجُّ مَنْصورٌ ، وقامَ فَصَلّى للهِ صَلاةَ الشُّكْرِ ، ثُمَّ عادَ قائِلاً : «حَمْدًا للهِ ، فَقَدْ جَعَلْتُ اللهَ كَفيلاً بِدَيْني ، فَأَدّاهُ عَنّي في مَوْعِدِهِ .»

واسِعَةَ الأَرْجاءِ ، تَمْتَدُّ مِنْ ساحِلِ الأَطْلَسِيِّ إلى قَلْبِ

وكانَ يُقيمُ في قَصْرِهِ العَظيمِ في دِمَشْقَ ، وكانَ القَصْرُ

الحاجاتِ ، ويَبُتُّ في شَكاوى المَظْلومينَ

ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ . »

وبعْدَ أنْ رَدَّ الأميرُ تَحيَّتَهُ سألَهُ : « مَنْ أنْتَ ، يا رَجُلُ ؟ وأيُّ أمْرٍ هامٍّ تَبْغي إطْلاعي عَلَيْهِ وَحْدي دونَ أنْ يَعْرِفَ النّاسُ ؟»

قالَ الرَّجُلُ : « أطالَ اللهُ عُمْرَكَ ، يا أميرَ الْمُؤْمِنينَ ، أنا رَجُلٌ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، أَشْتَغِلُ بالكيمْياءِ ، وقَدْ تَوَصَّلْتُ إلى اخْتِراعٍ عَجيبٍ ، أرَدْتُ أنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الأميرُ وَحْدَهُ . »

اِعْتَدَلَ الأميرُ في مَجْلِسِهِ قائلاً باسْتِغْرابٍ :

« اِخْتِراعٌ عَجيبٌ ! ما هَذا الاخْتِراعُ ؟ وما وَجْهُ انْتِفاعي بِهِ ؟»

اِبْتَسَمَ الرَّجُلُ قائلاً في ثِقَةٍ : « إنَّهُ سِلاحٌ جَديدٌ ، يَضْمَنُ لِجُيوشِكَ الَّتي تُحارِبُ في الشَّرْقِ والغَرْبِ ، وفي الشَّمالِ والْجَنوبِ ، دَوامَ الظَّفَرِ والانْتِصارِ ، عَلى كُلِّ أعْدائِكَ ، بِلا تَضْحِيَةٍ كَبيرَةٍ !»

اِزْدادَتْ دَهْشَةُ الأميرِ ، وأثارَ قَوْلُ الرَّجُلِ اهْتِمامَهُ ، فَقالَ :

« إنَّهُ حَقًّا اخْتِراعٌ عَجيبٌ ، فاكْشِفْ لي عَنْهُ إذًا . »

عِنْدَئِذٍ وَضَعَ الرَّجُلُ الغَريبُ يَدَهُ في جَيْبِهِ ، فَأَخْرَجَ كيسًا مِنَ الجِلْدِ ، أشارَ إلَيْهِ قائلاً : « هَذا هُوَ ، يا أميرَ الْمُؤْمِنينَ . إنَّ بداخِلِ هَذا الكيسِ مَسْحوقًا عَجيبًا ، لَوْ رَشَشْتَ قَليلاً مِنْهُ في وَجْهِ جُنودِ العَدُوِّ – لَفَقَدوا نِعْمَةَ البَصَرِ في لَحْظَةٍ ، واسْتَحالوا عُمْيانًا ، لا يَسْتَطيعونَ هُجومًا ولا مُقاوَمَةً !»

وسَكَتَ الرَّجُلُ لَحْظَةً ، ثُمَّ أضافَ بِلَهْجَةِ الْمُفْتَخِرِ :

« وبِذَلِكَ يَتَحَقَّقُ لِجُيوشِ مَوْلايَ النَّصْرُ والغَلَبَةُ في كُلِّ الْمَيادينِ ، بِلا جَهْدٍ أوْ خَسارَةٍ !»

أنْعَمَ الأميرُ النَّظَرَ في وَجْهِ الرَّجُلِ ، ثُمَّ اتَّكَأَ بِمِرْفَقَيْهِ عَلى كُرْسِيِّهِ قائلاً بِلَهْجَةٍ ساخِرَةٍ : « أنْتَ تُريدُ أنْ تُحَقِّقَ النَّصْرَ لِجُيوشِنا بِهَذا السِّلاحِ ؟»

وارْتَسَمَتْ دَلائِلُ الْحَيْرَةِ عَلى وَجْهِ الرَّجُلِ ، في حينِ اسْتَطْرَدَ الأميرُ : « وهَلْ يُمْكِنُكَ أنْ تُبَرْهِنَ عَلى صِدْقِ ما تَقولُ ، وتُرِيَنا أثَرَ هَذا السِّلاحِ العَجيبِ ؟»



« وكَيْفَ ذَلِكَ ، يا مَوْلايَ ؟ إنّني واثِقٌ . »

لَكِنَّ الأَميرَ قاطَعَهُ بِإشارَةٍ مِنْ يَدِهِ ، ثُمَّ دَعا حاجِبَهُ [illegible]

وعِنْدَئِذٍ اطْمَأَنَّ قَلْبُ الرَّجُلِ ، وأَيْقَنَ أَنَّ الأَميرَ إنَّما يُريدُ أَنْ يَشْهَدَ التَّجْرِبَةَ بِالفِعْلِ في الحَرَسِ . وإذا ما [illegible] يُجْزِلُ لَهُ العَطاءَ .

[illegible] الأَميرِ ، صاحَ بِهِمْ فَجْأَةً : « أَمْسِكوا هَذا الرَّجُلَ ، [illegible] حتّى نَرى بُرْهانَ صِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ ! »

أَصابَ الذُّعْرُ الرَّجُلَ ، فَتَراجَعَ قابِضًا عَلى الكيسِ بِشِدَّةٍ ، وهُوَ يَصْرُخُ بِغَيْرِ وَقارٍ : « مَوْلايَ ! »

وسُرْعانَ ما نَفَّذَ الحَرَسُ أَمْرَ الأَميرِ ، وشَرَعوا في شَدِّ وِثاقِهِ . فَصاحَ كالمَجْنونِ : « الرَّحْمَةَ ، يا مَوْلايَ ! لا

تَحرِمُني نِعْمَةَ البَصَرِ ! اِمْنَحْني عَفْوَكَ ، يا مَوْلايَ !»

وراحَ الرَّجُلُ يُمَرِّغُ خَدَّيْهِ عَلى الأَرْضِ يائِسًا ، عالِيَ الصَّوْتِ ، وكَأَنَّهُ في سوقٍ ، ولَيْسَ في حَضْرَةِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ، الَّذي يَحْكُمُ نِصْفَ الدُّنْيا - فَرَثى الأَميرُ لِحالِهِ ، وأَشْفَقَ عَلَيْهِ ، ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ هَتَفَ في غَضَبٍ :

« أَيُّها الرَّجُلُ الشِّرّيرُ ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ البَصَرَ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ ، إذا فَقَدَها الإنسانُ فَلا يُمْكِنُهُ تَعْويضُها بِحالٍ . كَيْفَ إذًا غابَ هَذا عَنْكَ ، وأَنْتَ تَخْتَرِعُ ذَلِكَ الْمَسْحوقَ الشِّرّيرَ . أ لا تَخافُ اللهَ وتَخْشى حِسابَهُ ؟ وكَيْفَ وَقَعَ في رُوعِكَ أَنَّ الأَميرَ شِرّيرٌ مِثْلُكَ ، ويَطيبُ لَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلى عَدُوِّهِ بِهَذِهِ الوَسيلَةِ الْخَسيسَةِ القاسِيَةِ ؟»

اِسْتَرَدَّ الأَميرُ أَنْفاسَهُ اللاهِثَةَ مِنْ فَرْطِ الغَضَبِ ، ثُمَّ اسْتَطْرَدَ قائِلاً بِهُدوءٍ :

« أَنْتَ تَسْتَحِقُّ عِقابًا صارِمًا ، ولَكِنِّي سَأَعْفو عَنْكَ . . لا لِشَيْءٍ سِوى أَنْ تَبْتَكِرَ اخْتِراعًا آخَرَ يَرُدُّ البَصَرَ لِلْمَكْفوفينَ ، وسَوْفَ يَكونُ رِجالي حَوْلَكَ يُراقِبونَ

عَمَلَكَ . وأَزيدُ عَلى هَذا أَنَّني عَلى اسْتِعْدادٍ لِلِقائِكَ في قَصْري وَقْتَما تَشاءُ ونِسْيانِ ما حَدَثَ ، إنْ أَفْلَحْتَ في اخْتِراعِكَ . »

ثُمَّ أَمَرَ الأَميرُ حَرَسَهُ أَنْ يَفُكّوا وَثاقَهُ ويُنْهِضوهُ ، ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الكيسَ الجِلْدِيَّ ، وقَصَدَ بِنَفْسِهِ نَهْرَ بَرَدى ، فَأَلْقى في مائِهِ الكيسَ بِما يَحْويهِ ، فَحَمَلَهُ التَّيّارُ إلى داخِلِ النَّهْرِ ، وما لَبِثَ أَنْ ذابَ في الماءِ ، وضاعَ أَثَرُهُ .

سِرُّ البِطِّيخ !

مُنْذُ أَزْمانٍ بَعيدَةٍ كانَ يَعيشُ في بَغْدادَ تاجِرٌ شَهيرٌ يُدْعى « مُصْطَفى البَغْدادي » . وكانَ الرَّجُلُ أَمينًا طَيِّبًا ، اكْتَسَبَ سُمْعَةً طَيِّبَةً بِفَضْلِ أَمانَتِهِ وحُسْنِ مُعامَلَتِهِ لِلنّاسِ . وذاتَ يَوْمٍ أَحَسَّ الرَّجُلُ قُرْبَ مَنِيَّتِهِ ، فَدَعا أَوْلادَهُ الثَّلاثَةَ ، وهُمْ « عَبْدُ اللهِ » الكَبيرُ ، و « عَبْدُ العَزيزِ » الأَوْسَطُ ، و « عَلِيٌّ » الأَصْغَرُ .

وقالَ الأَبُ لِوَلَدَيْهِ عَبْدِ اللهِ وعَبْدِ العَزيزِ : « يَبْدو ، يا أَبْنائي ، أَنَّني أَوْشَكْتُ عَلى لِقاءِ رَبِّي ، ولِذَلِكَ أوصيكُما خَيْرًا بِأَخيكُما الصَّغيرِ « عَلِيٍّ » فَهُوَ ما زالَ لَيِّنًا طَرِيًّا ، ولا خِبْرَةَ لَهُ بِالْحَياةِ ، أَمّا أَنْتُما فَقَدْ كَبِرْتُما ، ولَكُما القُدْرَةُ عَلى العَمَلِ والكَسْبِ ، ومُواجَهَةِ مَشاكِلِ الْحَياةِ . فَإِذا اخْتارَني اللهُ إِلَيْهِ ، فَكونا لَهُ أَبَوَيْنِ مَكانَ أَبيهِ الَّذي ماتَ ، وأَعْطِياهُ حَقَّهُ في الميراثِ مُساوِيًا لِحَقِّكُما ، فَذَلِكَ

شَرْعُ اللهِ الَّذي أَوْصى بِهِ . »

ولَمْ تَمْضِ بِضْعَةُ أَيّامٍ حَتّى ماتَ الأَبُ ، وعادَ الأَبْناءُ ، بَعْدَ أَنْ دَفَنوا أَباهُمْ ، يُفَكِّرونَ في أَمْرِ الميراثِ ، وتَقْسيمِ التَّرِكَةِ . وكانَتْ هَذِهِ التَّرِكَةُ مُكَوَّنَةً مِنْ دارٍ ودُكّانٍ وقِطْعَةِ أَرْضٍ صَغيرَةٍ لا تَصْلُحُ لِلزِّراعَةِ ، فَقالَ الأَخُ الأَكْبَرُ « عَبْدُ اللهِ » : « الدّارُ لي . . فَأَنا الآنَ كَبيرُ الأُسْرَةِ . »

فَوافَقَ الأَخَوانِ الأَوْسَطُ والأَصْغَرُ . ثُمَّ قالَ الأَوْسَطُ : « أَمّا الدُّكّانُ فَهِيَ لي – فَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ بِها وأُساعِدُ أَبي في تِجارَتِهِ . »

وعِنْدَئِذٍ قالَ الأَخُ الأَصْغَرُ « عَلِيٌّ » : « وماذا إِذًا يَبْقى لي ؟ لا شَيْءَ غَيْرُ تِلْكَ الْمِساحَةِ الصَّغيرَةِ مِنَ الأَرْضِ ، وقَدْ أَجْدَبَتْ مُنْذُ زَمَنٍ ، وما عادَتْ تَصْلُحُ لِلزِّراعَةِ ! »

وإِذا أَخَواهُ يَقولانِ لَهُ في لَهْجَةٍ غاضِبَةٍ : « هَذا شَأْنُكَ ، وأَنْتَ حُرٌّ . أَمّا لَوْ كُنْتَ سَتُسَبِّبُ لَنا الْمَتاعِبَ ، فَسَوْفَ نَطْرُدُكَ مِنَ الدّارِ ، فَلا تَجِدُ طَعامًا ولا سَكَنًا ! »

ولَمْ يَجِدْ « عَلِيٌّ » مَفَرًّا مِنْ قَبولِ حُكْمِهِما الجائِرِ ،

فَأَيْنَ يَذْهَبُ لَوْ طَرَدوهُ مِنَ البَيْتِ ؟ وكَيْفَ يُمْكِنُهُ مُواجَهَةُ الْحَياةِ وَحْدَهُ ؟ وكانَ لا بُدَّ أَنْ يُصْلِحَ تِلْكَ الْمِساحَةَ الصَّغيرَةَ مِنَ الأَرْضِ ؛ فَهِيَ مَصْدَرُ رِزْقِهِ الوَحيدُ ، وبِدونِها لَنْ يَسْتَطيعَ العَيْشَ . ولِذا دَأَبَ عَلى الصَّحْوِ مُبَكِّرًا كُلَّ يَوْمٍ ، والعَمَلِ في الأَرْضِ ، حَتّى اسْتَطاعَ بَعْدَ جَهْدٍ كَبيرٍ أَنْ يُصْلِحَ تُرْبَتَها ، ويَجْعَلَها قابِلَةً لِلزِّراعَةِ ، ولَمْ يَبْقَ غَيْرُ ثَمَنِ شِراءِ البُذورِ الْمُناسِبَةِ . وهَذِهِ تَحْتاجُ لِبَعْضِ المالِ الَّذي لَمْ يَكُنْ بِحَوْزَتِهِ شَيْءٌ مِنْهُ .

حاوَلَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْ أَخَوَيْهِ ، لَكِنَّهُما اعْتَذَرا . ومِنْ ثَمَّ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ بَذْرِ الأَرْضِ بِبُذورِ البِطّيخِ الَّتي جَمَعَها مِنَ الطَّريقِ ! وتَوالَتِ الأَيّامُ وهُوَ عاكِفٌ عَلى أَرْضِهِ ، يَتَعَهَّدُها بِالرَّيِّ . ولَمْ تَمْضِ بِضْعَةُ أَسابيعَ - حَتّى نَمَتْ سيقانُ الزَّرْعِ ، وأَوْرَقَتْ ثُمَّ أَزْهَرَتْ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ ثِمارُ البِطّيخِ مِنْ بَيْنِ عُروقِها .

جَمَعَ « عَلِيٌّ » مَحْصولَهُ ، ولَكِنَّهُ حارَ فيما يَفْعَلُ بِهِ ؛ فَقَدْ شَهِدَ هَذا الْمَوْسِمُ نِتاجًا وَفيرًا مِنَ البِطّيخِ ، فَأَغْرَقَ

السّوقَ مَحْصولُهُ ، ورَخُصَتْ أَسْعارُهُ . كَيْفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَبيعَ مَحْصولَهُ بِثَمَنٍ يُناسِبُ ما بَذَلَهُ مِنْ جَهْدٍ وعَرَقٍ ؟

وهَداهُ تَفْكيرُهُ إلى مُحاوَلَةِ تَسْويقِ مَحْصولِهِ خارِجَ مَدينَةِ بَغْدادَ ، في الأَطْرافِ النّائِيَةِ ، حَيْثُ يَقِلُّ الْمَعْروضُ مِنْهُ فَيَرْتَفِعُ ثَمَنُهُ نِسْبِيًّا . ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَضَعَ « عَلِيٌّ » بِطّيخَهُ في شَبَكَةٍ مِنَ اللّيفِ عَلى ظَهْرِ حِمارِهِ ، ومَضى إلى خارِجِ بَغْدادَ ، دونَ أَنْ تَكونَ لَهُ وِجْهَةٌ أَوْ مَقْصِدٌ مُعَيَّنٌ ، لَكِنَّهُ كانَ عازِمًا عَلى أَلا يَعودَ إلى هَذِهِ الْمَدينَةِ الَّتي يَعيشُ فيها أَخَواهُ الظّالِمانِ .

ظَلَّ عَلِيٌّ سائِرًا وَراءَ حِمارِهِ بِضْعَةَ أَيّامٍ مُتَتالِيَةٍ ، وكُلَّما نَهَشَ الجوعُ أَمْعاءَهُ وأَحَسَّ بِالتَّعَبِ - جَلَسَ بَعْضَ الوَقْتِ ، فَتَناوَلَ كِسْرَةَ خُبْزٍ يابِسَةً مِمّا مَعَهُ ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَسْتَريحَ يَسْتَأْنِفُ سَيْرَهُ . فَإِنْ أَحَسَّ الظَّمَأَ - كَسَرَ بِطّيخَةً ورَوّى بِها ظَمَأَهُ . وبَعْدَ حَوالى عَشَرَةِ أَيّامٍ مُتَوالِيَةٍ ، وَجَدَ نَفْسَهُ عَلى حُدودِ الصَّحْراءِ ، وقَدْ بَعُدَ تَمامًا عَنِ العُمْرانِ . وكانَ التَّعَبُ والإرْهاقُ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ مَبْلَغًا كَبيرًا ، فَجَلَسَ

يَسْتَريحُ بَعْضَ الوَقْتِ ، ويُحَدِّقُ حائرًا في الفَراغِ الماثِلِ أَمامَ ناظِرَيْهِ ، كَأَنَّهُ بلا حُدودٍ .

وبَيْنَما هُوَ مُسْتَغْرِقٌ في تَأَمُّلاتِه – إذا بجَيْش يَتراءى لِناظِرَيْهِ مُقْبلاً مِنْ جَوْفِ الصَّحْراءِ ، وفي مُقَدِّمَتِه أَميرٌ عَظيمٌ عَلى حِصانِهِ ، وتاجُهُ يَبْرُقُ في وَهَجِ الشَّمْسِ بَريقًا يَخْطِفُ الأَبْصارَ . كانَ هَذا جَيْشَ السُّلْطانِ . قادمًا مِنْ مَعْرَكَةٍ حامِيَةٍ خاضَها مَعَ العَدُوِّ ، ثُمَّ عادَ عَنْ طَريق الصَّحْراءِ . وكانَ الماءُ قَدْ نَفِدَ مِنْه في أَثْناءِ سَيْرِهِ ، فَسَقَطَ كَثيرٌ مِنْ جُنْدِهِ صَرْعى العَطَشِ . وكانَ أَشَدُّهُمْ عَطَشًا هُوَ السُّلْطانَ نَفْسَهُ ، فَقَدْ جَفَّ حَلْقُهُ ، وتَشَقَّقَتْ شَفَتاهُ ، ولَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الْمَوْتِ عَطَشًا إلا بِضْعُ خُطُواتٍ .

وما كادَ الْجَيْشُ يَرى « عَلِيًا » ومَعَهُ البِطّيخُ – حَتّى صاحَ الْجُنْدُ وهَلَّلوا فَرَحًا ، وأَقْبَلوا عَلَيْهِ . وهَتَفَ بِهِ السُّلْطانُ : « شُقَّ بِطّيخَةً ، أَيُّها الفَتى الطَّيِّبُ ، وسَأُجْزِلُ لَكَ العَطاءَ ! » فَأَطاعَ « عَلِيٌّ » أَمْرَ السُّلْطانِ ، وشَقَّ بَيْنَ يَدَيْه بِطّيخَةً شَهِيَّةً ، لَمْ يَلْبَثِ السُّلْطانُ أَنِ الْتَهَمَها الْتِهامًا

مِنْ فَرْطِ عَطَشِهِ ، ثُمَّ نَزَعَ مِنْ تاجِهِ أَعْظَمَ جَوْهَرَةٍ ، وكافَأَ بِها الصَّبِيَّ .



أَمّا الْجُنْدُ و رُؤَساؤُهُمْ وقادَتُهُمْ ، فَقَدْ أَقْبَلوا عَلى ما قَدَّمَ لَهُمْ « عَلِيٌّ » مِنَ البطّيخ ، يُرَوُّونَ بِهِ ظَمَأَهُمْ ، ويَلْتَهِمونَهُ الْتِهامًا ، ثُمَّ كافَأَهُ كُلٌّ مِنْهُمْ بما قَدَرَ عَلَيْهِ ، مَهْما غَلا ثَمَنُهُ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَدَّمَ لَهُ جَوْهَرَةً ، ومِنْهُمْ مَنْ أَعْطاهُ قَبْضَةَ سَيْفِهِ الذَّهَبِيَّةَ . أَمّا الْجُنْدُ فَقَدْ دَفَعَ لَهُ كُلٌّ مِنْهُمْ حَفْنَةً مِنَ المالِ ؛ جَزاءً لَهُ عَلى إِنْقاذِهِ حَياتَهُمْ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ . ثُمَّ بالَغَ السُّلْطانُ في إِكْرامِهِ – فَخَلَعَ عَلَيْهِ حُلَّةً سُلْطانِيَّةً ، وحَمَلَهُ عَلى جَوادٍ مِنْ أَحْسَنِ الجِيادِ ، كَما أَهْدى إِلَيْهِ بَعْضَ غِلْمانِهِ لِيَحْرُسوهُ في أَثْناءِ الطَّريقِ ، ويَكونوا خَدَمًا لَهُ !

وهَكَذا عادَ « عَلِيٌّ » وهُوَ يَحْمِلُ مِنَ المالِ والْجَواهِرِ ، ومِنَ الذَّهَبِ والطَّرائِفِ ، أَكْثَرَ مِمّا كانَ يَحْمِلُ حِمارُهُ مِنَ البطّيخ ! فَحَمِدَ اللهَ عَلى ما نالَهُ ، وقَرَّرَ أَنْ يَعودَ إِلى بَلَدِهِ ، ويَصْنَعَ الْخَيْرَ لِلنّاسِ ما وَسِعَهُ الْجُهْدُ ؛ شُكْرًا للهِ عَلى ما أَعْطاهُ .

وما كادَ يَبْلُغُ بَغْدادَ ، وكانَ قَدْ مَضى عَلى فِراقِهِ لَها

عِشْرونَ يَوْمًا ؛ حَتّى رَأى كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ فيها ؛ فَأَصْدِقاؤُهُ الَّذينَ لَقِيَهُمْ ، لَمْ يَكونوا يُحَيّونَهُ ، فَما كانَ بِاسْتِطاعَتِهِمُ التَّعَرُّفُ عَلَيْهِ في مَظْهَرِهِ الْجَديدِ وَسْطَ خَدَمِهِ ، والْحُلَّةِ السُّلْطانِيَّةِ الَّتي يَرْتَديها ، مُعْتَلِيًا صَهْوَةَ حِصانِهِ . لَقَدْ تَغَيَّرَ شَكْلُهُ وزِيُّهُ ، وبَدا وَكَأَنَّهُ أَميرٌ وَسْطَ حُرّاسِهِ وأَعْوانِهِ .

ولَمّا قَصَدَ دارَ أَبيهِ ، لِيَلْقى أَخاهُ « عَبْدَ اللهِ » – وَجَدَها حُطامًا وأَنْقاضًا مُكَوَّمَةً . ولَمّا سَأَلَ عَرَفَ أَنَّ حَريقًا قَدْ شَبَّ في الدّارِ فالْتَهَمَها ، ولَمْ يَبْقَ لأَخيهِ عَبْدِ اللهِ مَكانٌ يُؤْويهِ ، أَوْ سَكَنٌ يَحْميهِ ، فَأَصْبَحَ يَهيمُ عَلى وَجْهِهِ في الطُّرُقاتِ ، وفي اللَّيْلِ يَفْتَرِشُ الأَرْضَ ويَلْتَحِفُ السَّماءَ !

أَمّا مَتْجَرُ أَبيهِ الَّذي اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ « عَبْدُ العَزيزِ » – فَقَدْ وَجَدَ فيهِ شَخْصًا آخَرَ غَيْرَ أَخيهِ . ولَمّا سَأَلَ صاحِبَهُ الْجَديدَ – أَخْبَرَهُ أَنَّهُ ابْتاعَهُ مِنْهُ بِكُلِّ ما فيهِ ، وقَبَضَ ثَمَنَهُ لِيُتاجِرَ بِهِ في بَلَدٍ آخَرَ . ثُمَّ مَطَّ الرَّجُلُ شَفَتَيْهِ قائِلاً في لَهْجَةٍ حَزينَةٍ : « ولَقَدْ سَمِعْتُ – لِلأَسَفِ – أَنَّ لُصوصًا قَد

اعْتَرَضوهُ في الطَّريقِ ، واسْتَوْلَوا عَلى ما مَعَهُ مِنَ المالِ ، فَعادَ إلى بَغْدادَ حَزينًا مَحْسورًا ، لا يَمْلِكُ مالاً ولا تِجارَةً . »

حَزِنَ « عَلِيٌّ » حُزْنًا كَبيرًا عَلى ما حَدَثَ لأَخَوَيْهِ ، وما أَصابَ دارَ أَبيهِ ودُكّانَهُ . ولَمْ يَهْدَأْ لَهُ بالٌ حَتّى عَثَرَ عَلى أَخَوَيْهِ ؛ فَساعَدَهُما بِمالِهِ ؛ لِيَعيشا عيشَةً كَريمَةً . ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَعادَ بِناءَ الدّارِ في مَكانِها عَلى طِرازٍ حَديثٍ ، وعاشَ فيها هانِئًا سَعيدًا . ولَمْ يَكُفَّ عَنِ البِرِّ والإِحْسانِ وعَمَلِ الْخَيْرِ طَوالَ حَياتِهِ وحَتّى مَماتِهِ .

وما زالَ أَهْلُ بَغْدادَ يَتَقَرَّبونَ إلى اللهِ عِنْدَ ضَريحِ الشَّيْخِ « عَلِيِّ البَغْدادِيِّ » بِالصَّدَقاتِ والنُّذورِ ، يُؤَدّونَها لِلْفُقَراءِ والْمَساكينِ ، كَما كانَ يَفْعَلُ « عَلِيٌّ البَغْدادِيُّ » في حَياتِهِ ، كَما أَنَّهُمْ اعْتادوا شَقَّ البِطّيخِ عِنْدَ ضَريحِهِ ، لِيَبُلّوا بِهِ ريقَ كُلِّ عابِرِ سَبيلٍ !

الدُّكتور مَيْمون

في قَديمِ الزَّمانِ ، كانَ يَعيشُ في إِحْدى الْمُدُنِ ، شابٌّ ذَكِيٌّ يُدْعى « كَسّاب » ، وكانَ فَقيرًا مَحْدودَ الرِّزْقِ رَغْمَ ذَكائِهِ وسَعَةِ حيلَتِهِ ، حَتّى اضْطَرَّتْهُ الظُّروفُ لأَنْ يَبْتاعَ قِرْدًا بِثَمَنٍ رَخيصٍ ، ويَدورَ بِهِ في الأَسْواقِ ، وفي يَدِهِ دُفٌّ يَنْقُرُ عَلَيْهِ ، فَيَلْتَفُّ حَوْلَهُ الصِّغارُ والكِبارُ ؛ لِيُشاهِدوا القِرْدَ وهُوَ يُقَلِّدُ بَعْضَ أَصْحابِ الْحِرَفِ كالنَّجّارِ والْحَدّادِ والْخَبّازِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمّا دَرَّبَهُ عَلَيْهِ « كَسّاب » .

كانَ « كَسّاب » يَعودُ مُرْهَقًا في آخِرِ اليَوْمِ مِنْ كَثْرَةِ السَّعْيِ في الطُّرُقاتِ ، ورَغْمَ هَذا كانَ سَعيدًا بِعَمَلِهِ ، خاصَّةً وهُوَ يَرى الأَطْفالَ يَسْعَدونَ ويَضْحَكونَ مِنْ قُلوبِهِمُ الصَّغيرَةِ ؛ بِسَبَبِ حَرَكاتِ القِرْدِ .

وذاتَ يَوْمٍ أَحَسَّ صُداعًا شَديدًا في رَأْسِهِ ، فَذَهَبَ إِلى طَبيبِ البَلْدَةِ ، ومَعَهُ قِرْدُهُ ؛ وكانَ مَنْظَرُهُ يَدُلُّ عَلى فَقْرِهِ

فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ الطَّبيبُ ، وتَرَكَهُ يَنْتَظِرُ . كانَ الْمَرْضى يَدْخُلونَ ويَخْرُجونَ دونَ أَنْ يَسْتَغْرِقَ ذَلِكَ وَقْتًا طَويلاً ؛ فَلَمْ يَكُنِ الطَّبيبُ يَفْعَلُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَأْمُرَ أَحَدَهُمْ بِأَنْ يَفْتَحَ فَمَهُ ويَنْظُرَ فيهِ ، ثُمَّ يَقولَ لَهُ خُذْ شَرْبَةً ، أَوْ يَجُسَّ نَبْضَهُ ثُمَّ يَصِفَ لَهُ مَنْقوعًا مُعَيَّنًا مَعْروفًا عِنْدَ العَطّارِ ، أَوْ يَنْصَحَهُ أَنْ يَدْهُنَ جَسَدَهُ بِقِطْعَةٍ من القُطْنِ مُبَلَّلَةٍ بالْخَلِّ ثُمَّ لا يَتَعَرَّضَ لِتَيّارِ هَواءٍ . كُلُّ هَذا و « كَسّاب » واقِفٌ يَنْتَظِرُ هُوَ وقِرْدُهُ دونَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ الدَّوْرُ . وكانَ الْمَلَلُ قَدْ أَصابَهُ ، فانْصَرَفَ وهُوَ يَجُرُّ القِرْدَ وَراءَهُ .

وما إِنْ وَصَلَ « كَسّاب » وقِرْدُهُ إِلى البَيْتِ ، حَتّى شَرَعَ القِرْدُ يُقَلِّدُ الْحَرَكاتِ الَّتي كانَ الطَّبيبُ يَأْتيها ، فَأَثارَ ضَحِكَ صاحِبِهِ ، وهَتَفَ قائِلاً : « لَقَدْ أَوْشَكْتَ أَنْ تَكونَ طَبيبًا ، يا مَيْمونُ ! » وفَجْأَةً خَطَرَتْ بِبالِهِ فِكْرَةٌ ، لِمَ لا يَفْعَلُ مِثْلَ الطَّبيبِ ، إِنَّهُ يَكادُ لا يَفْعَلُ شَيْئًا صَعْبًا ! ومَضى إِلى السّوقِ فاشْتَرى عِمامَةً تُشْبِهُ عِمامَةَ الطَّبيبِ ، وثِيابًا كَثِيابِهِ ، وآلاتٍ بَسيطَةً كَآلاتِهِ ، وشَرَعَ عَلى الفَوْرِ في مُمارَسَةِ مِهْنَةِ التَّطْبيبِ .

وذاعَ صيتُ « كَسّاب » في أَنْحاءِ البِلادِ ، حَتّى سَمِعَ بِهِ السُّلْطانُ ، وكانَ يَشْكو صُداعًا دائِمًا في رَأْسِهِ ، فَدَعاهُ لِيُداوِيَهُ . فَلَمّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَأَلَهُ السُّلْطانُ : « كَيْفَ اكْتَسَبْتَ خِبْرَتَكَ في الطِّبِّ ، يا رَجُلُ ؟ » وبِكُلِّ جَسارَةٍ رَدَّ « كَسّاب » : « مِنِ ابْنِ مَيْمونٍ ، يا مَوْلايَ . »

قالَ السُّلْطانُ : « تَقْصِدُ موسى بْنَ مَيْمونٍ ، الطَّبيبَ القَديمَ الْمَعْروفَ ؟ »

« أَجَلْ ، يا مَوْلايَ . »

اِغْتَبَطَ السُّلْطانُ بِإِجابَتِهِ ، وقالَ لأَصْدِقائِهِ : « أَ رَأَيْتُمْ ؟ إِنَّهُ فِعْلاً طَبيبٌ ماهِرٌ ، يُمْكِنُني أَنْ أَثِقَ بِهِ . »

لَكِنَّ أَحَدَ أَصْحابِ السُّلْطانِ كانَ يَعْرِفُ « كَسّاب » مَعْرِفَةً جَيِّدَةً ، فَسَأَلَهُ ساخِرًا : « أَلَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ قَرّادًا ؟ »

ودونَ أَنْ تَهْتَزَّ ثِقَتُهُ بِنَفْسِهِ رَدَّ بِهُدوءٍ : « بَلى ، يا سَيِّدي . وقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُفيدَ وأَسْتَفيدَ مِنْ خِبْراتي الطِّبِّيَّةِ الَّتي أَخَذْتُها عَنِ ابْنُ مَيْمونٍ . هَلْ في ذَلِكَ عَيْبٌ ؟ »

وأَفْحَمَ الرَّدُّ صاحِبَ السُّلْطانِ فَصَمَتَ ، لَكِنَّ صَديقًا

آخرَ قالَ بَعْدَ تفكير : « لِمَ لا تُكلِّفُهُ ، يا مَوْلايَ ، بِالعَمَلِ في مُسْتَشْفى الْمَدينَةِ ، وتَرى كَيْفَ يُعالِجُ النّاسَ ؟»

وسَأَلَ السُّلْطانُ « كسّاب » : « هَلْ تُوافِقُ ؟»

وهَمَّ « كسّاب » بالرَّدِّ ، لَكِنَّ السُّلْطانَ تَوَعَّدَهُ قائلاً : « لَوْ ثَبَتَ فَشَلُكَ ، فَسَوْفَ أُعاقِبُكَ بِشِدَّةٍ !»

ذَهَبَ « كسّاب » إلى الْمُسْتَشْفى ، وكانَ أَوَّلَ ما فَعَلَهُ أَنِ اسْتَدْعى الْمَسْئولَ عَنْهُ ، وَقالَ له : « سَوْفَ أُحاوِلُ تَجْرِبَةً جَديدَةً في الْعِلاجِ ، لَنْ يَعْرِفَ بها غَيْرُكَ وغَيْري ، فَإِنْ أَفْشَيْتَ سِرَّها قَتَلْتُكَ ، وإذا سَكَتَّ أَعْفَيْتُكَ ، ومَنَحْتُكَ نِصْفَ ما يُعْطيني السُّلْطانُ . »

قالَ الرَّجُلُ مُتَحَيِّرًا : ثِقْ بي ، يا سَيِّدي . »

وأَمَرَهُ « كسّاب » أَنْ يُحْضِرَ قِدْرًا كَبيرَةً مَمْلُوَّةً زَيْتًا ساخِنًا ، ثُمَّ دَعا أَوَّلَ مَريضٍ ، وسَأَلَهُ عَمّا يوجِعُهُ ، فَأَخْبَرَهُ الرَّجُلُ ، فَقالَ لَهُ بِهُدوءٍ : « اِشْرَبْ كوبًا مِنَ الزَّيْتِ السّاخِنِ ، ثُمَّ ادْهُنْ بِهِ جِسْمَكَ !»

لَمَحَ الرَّجُلُ قِدْرَ الزَّيْتِ الْمَغْلِيِّ فَأَصابَهُ الذُّعْرُ ،

وسَأَلَ : « ما هَذا ، يا سَيِّدي الطَّبيبَ ؟»

قالَ « كسّاب » : « شِفاؤُكَ في الزَّيْتِ السّاخِنِ !»

وعِنْدَئِذٍ تَراجَعَ الْمَريضُ مَذْعورًا ، ورَفَضَ أَنْ يُعالَجَ هَكَذا ، فَقالَ « كسّاب » : « هَذا هُوَ عِلاجُكَ ، ولا عِلاجَ غَيْرُهُ ، فَإِنْ كُنْتَ مَريضًا فافْعَلْ . »

قالَ الرَّجُلُ بِسُرْعَةٍ : « لا ، يا سَيِّدي . لَسْتُ مَريضًا ، وَقَدْ بَرِئْتُ والْحَمْدُ للهِ مُنْذُ الأَمْسِ ، وكُنْتُ أَنْوي الْخُروجَ اليَوْمَ !»

قالَ « كسّاب » عَلى الفَوْرِ : « أُكْتُبْ هَذا بِخَطِّ يَدِكَ إذًا ، ثُمَّ اخْرُجْ وأَبْلِغِ السُّلْطانَ أَنَّكَ بَرِئْتَ . »

ولكِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُبْلِغِ السُّلْطانَ بِشِفائِهِ ، بَلْ أَبْلَغَهُ بِحيلَةِ الطَّبيبِ ، وكانَ الْمَسْئولُ عَنِ الْمُسْتَشْفى قَدْ سَبَقَهُ إلى السُّلْطانِ لِيَكْشِفَ جَهْلَ « كسّاب » ودَجَلَهُ .

اِسْتَدْعى السُّلْطانُ « كسّاب » ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَقَلْبُهُ يَطيرُ فَرَحًا ؛ فَقَدْ ظَنَّ أَنَّهُ نَجَحَ في الاخْتِبارِ ، ولَكِنْ خابَ ظَنُّهُ عِنْدَما رَأى السُّلْطانَ قَدْ أَعَدَّ لَهُ العِقابَ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ !

المحتويات

الينابيع

الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

اليَـنابـيع

١- سَيف الإحسَان وَقصَص أخرى
٢- حَبّات العقد وَقصَص أخرى
٣- عَنترة بن شدّاد: مَولد البَطل
٤- عَنترة بن شدّاد: عَبلة وَالصبي المقاتِل
٥- البَاحِث عَن الحَظ وَقصَص أخرى
٦- عَنترة بن شدّاد: السَّيف وَالكلِمات
٧- عَنترة بن شدّاد: يَوم عَنترة
٨- رحلة السّندباد المَجهُولة
٩- الشّعْرَة الذّهبِيّة
١٠- مَشورَة قَصيرَة وَقصَص أخرى
١١- الدّهَان السِّحريّ وَقصَص أخرى
١٢- مَزحَة صَيف وَقصَص أخرى
١٣- كُرسيّ السُّلطَان

01R160712

مَكتبَة لبنَان نَاشِرُون
الشركَة المصريَّة العَالميَّة لِلنشر - لونجمان